www.dar-alkotob.com دار الكتب

رثاء الأم

في

الأدب العربي الحديث

دكتور
عبد الناصر محمد السيد
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

طبعة ٢٠٠٠ م

www.dar-alkotob.com دار الكتب

دار الكتب www.dar-alkotob.com

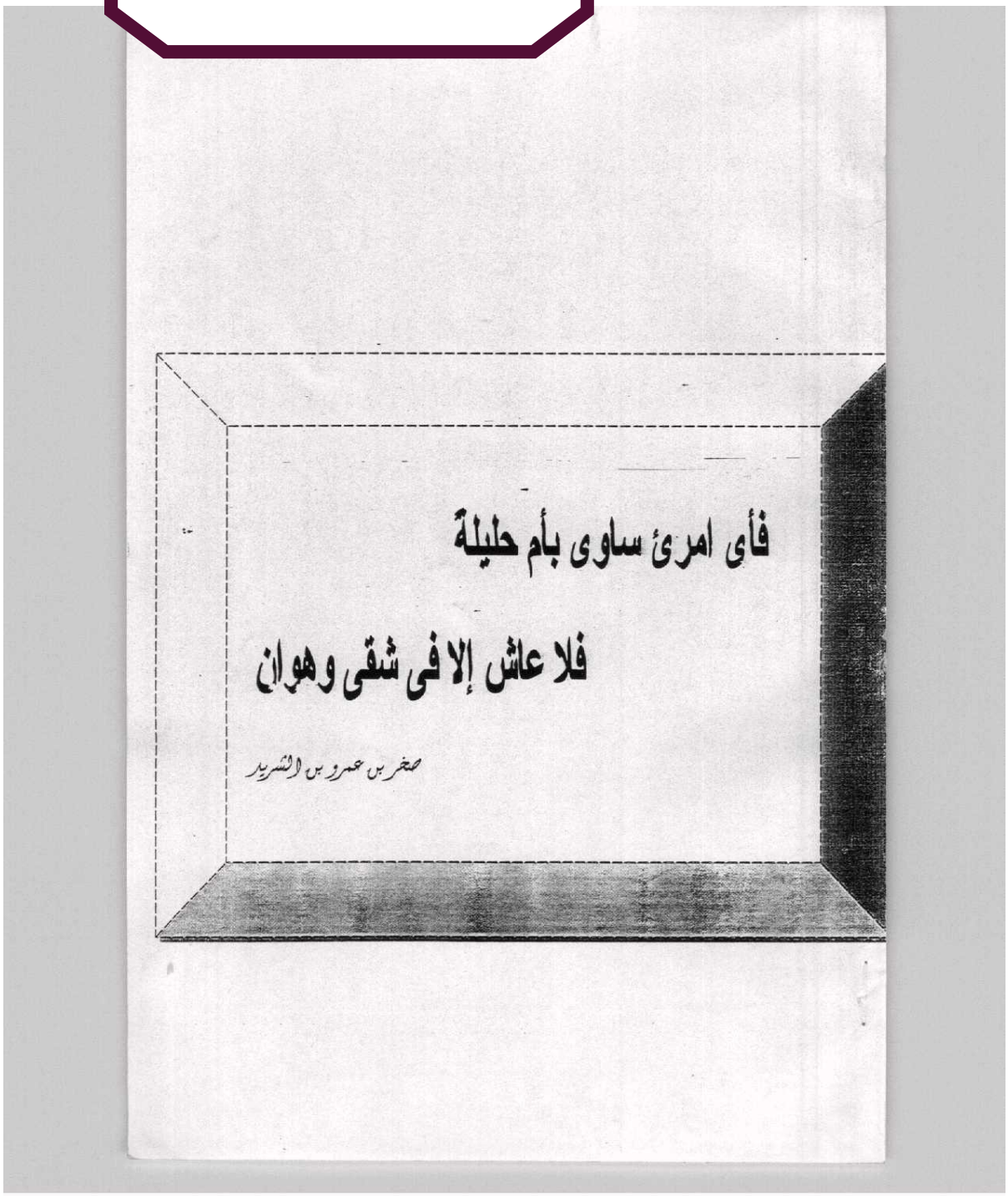

www.dar-alkotob.com دار الكتب

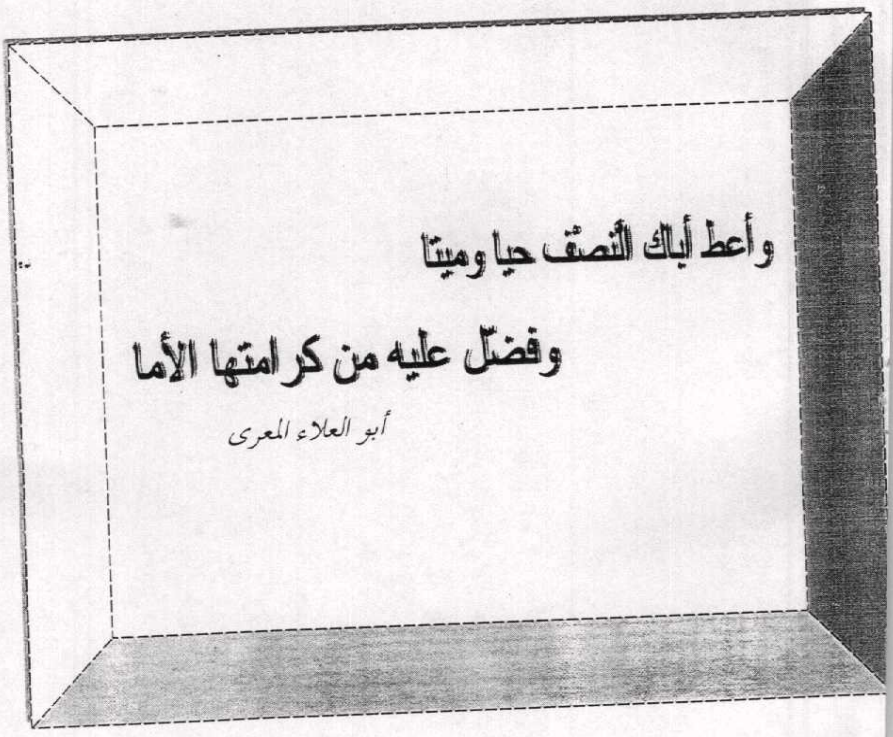

دار الكتب www.dar-alkotob.com

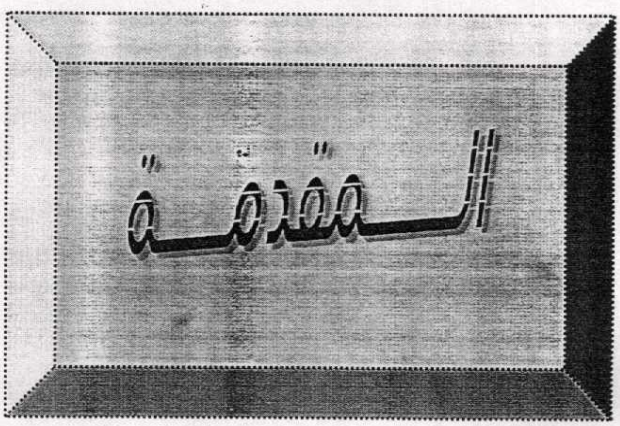

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله صلـى الله عليه وسـلم ..

وبعـــــد:-

ففى المكتبة الأدبية، كتيـب صغـير تحـت عنـوان "الأم فى أدبنـا العـربى" لفتحى الإبيارى، الدار القومية للطباعة والنشـر، تحـدث فيـه عـن الأم فى الأدب العربى قائلاً : "ويخيل إلى أنه بالرغم من تلك القسوة الظـاهرة فى مجتمـع العـرب فى الجاهلية بالنسبة للمرأة، إلا أن قيثارة الشعراء العـرب،كـانت تفضـح مـا فى أعماقهم من رقة وحنان بالنسبة للمرأة، فقصائدهم مليئـة بلوعـة الحـب والغـزل والشوق والهيام، والسهد والغرام. ومع كـل هـذا، فلـم يـترنم أحـد بأمـه فى قصيدة كاملة. وفى إمكاننا أن نمر بعدد كبير مـن الشـعراء، حـتى نصـل إلى أبى الطيب المتنبى , فنجده يذكر الأم فى قصيدته التى رثى بهـا جدتـه لأمـه، فـهو لم يذكر الأم إلا بمناسبة الموت، وكذلك الحـال فى شـوقى"[1]

شـغلنى موضـوع الأم فى الأدب العـربى، وخاصـة رثـاء الأم فى العصـر

دار الكتب www.dar-alkotob.com

الحديث عن رثاء هذا الشاعر لأمه، ومعارضته لشـــاعر آخـــر. والأمثلـــة عديـــدة، منها ما ذكره الأستاذ الدكتور طه أبو كريشة فى كتابـــه "فى مـــيزان النقـــد الأدبى" سنه ١٩٧٦م القاهرة،عندما تحدث عـــن قصيـــدة أبى فـــراس الحمـــدانى فى رثـــاء أمه، ومنها ما ذكره الأستاذ الدكتـــور إبراهيـــم عوضـــين فى كتابـــه "المعارضـــة فى شعر شوقى" سنه ١٩٨٢م عندما وازن بين المتنـــبى وشـــوقى.

ومن ثم فقد رحت – مستعيناً بالله عز وجـــل – أتتبـــع رثـــاء الأم فى أدبنـــا العربى الحديث، وقد مهدت لهذه الدراسة بالحديث عن رثـــاء الأم عنـــد الشـــعراء قبل هذه المرحلـــة، ثم جـــاءت الدراســـة فى فصلـــين، أولهمـــا يختـــص بالدراســـة الموضوعية، وما تناوله الشعراء فى قصيـــدة الرثـــاء، وثانيـــهما تنـــاول بالدراســـة الفنية قصيدة الرثـــاء. وتحـــدث عـــن أخـــص خصائصـــها. ثم كـــانت خاتمـــة الدراســـة.

والله أسأل أن ينفع به، ويتجاوز عن التقصير،

آمين

دكتور

عبد الناصر محمد السعيد

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

تمهيـــــد

حظيت الأم فى القديم والحديث بالعناية والرعاية من فحول الشـــعراء والأدباء، ولهم قصائد فى الأم، فى حياتها وبعد مماتها، تعكس لنا وتصـــور كيف، كانت الأم تشكل حياتهم وتصيغ عالمهم.

وأول ما يطالعنا من تلك المواقف ، تلك الأبيات التى قالها صخر بـــن عمر بن الشريد عندما مرض قريبا من حولٍ حتى ملّه أهله ، فسمع صخر امرأة ، وهى تسأل سلمى امرأته : كيف بعلك؟ فقالت سلمى :- لا حـــىّ فيرجى ، ولا ميت فينعى ، لقينا منه الأمرّين. وعلى الجانب الآخر تجيـب ***الأم : بأحسن حال ما كان منذ اشتكى خيرا منه اليوم. ولا نزال بخير مـا رأينا سواده فينا، وينطلق صخر معبراً عن هذين الموقفين المتناقضين:-***

أرى أم صخر لا تمـــلّ عيـــادتى	ومـلّت سليمى مضجعـــى ومكـــانى
وما كنت أخشى أن أكون جنـــازة	عليك ومن يغتر بالحدثـــــــان ؟
أهم بأمر الحزم لـــو أســـتطيعه	وقد حيل بين العيـــر والنـــزوان
لعمرى لقد نبهت من كـــان نائمـــا	وأسمعت من كانت لـــــه أذنـــان
وللموت خير من حياة كـــــأنها	معرس يعسوب بـــرأس سنـــــان
وأى امرئ ساوى بأم حليلـــــة	فلا عاش إلا فى شـــقا وهـــوان(١)

(١) ديوان الخنساء صـــ ٨٥ تحقيق الدكتور إبراهيم عوضين ، الطبعة الأولى ، مطبعـــة الســـعادة ، ١٩٨٦م والأغـــانى حـــ١٥ صـــ ٧٨ طبعة دار العودة-بيروت والشعر والشعراء : ابن قتيبة صـــ ٣٥٢ تحقيق محمد شاكر

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وهذه الكلمات وتلك الأبيات من هذا الشاعر ، تشغل البدايات الأولـــى التى تلمع فيها صورة الأم ، وتجعلنا نقف بحذر أمام تلـــك المقولـــة التـــى تجرد الشعر العربى من هذه اللمحات وذلك حين تقول [ويخيل إلـــى أنـــه بالرغم من تلك القسوة الظاهرة فى مجتمع العرب فى الجاهليـــة بالنســبة للمرأة ، إلا أن قيثارة الشعراء العرب كانت تفضح ما فى أعماقهم من رقة وحنان بالنسبة للمرأة ، فقصائدهم مليئة بلوعة الحب و الغزل و الشـــوق و الهيام و السهد و الغرام ، و مع كل هذا فلم يترنم أحد منهم بأمه فى قصيدة كاملة.

وفى إمكاننا أن نمر سريعاً بعدد كبير من الشعراء حتى نصـــل إلـــى أبى الطيب المتنبى فنجده يذكر الأم فى قصيدته التـــى رثـــى بـــها جدّتـــه لأمه..][1]

وليست بدايات الرثاء للأم عند المتنبى ، و إنما نستطيع أن نتوقـــف أولاً عند ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٣ هـــ ، وبعده الصنوبرى المتوفـــى سنة ٣٥٤ هـــ . هذا من ناحية ،ونستطيع أن نتوقف عنـــد قصـــائد أبـــى فراس التى أرسل بها إلى أمه ، والتى لم تكن من الرثاء فى شـــئ ، ممـــا يدحض المقولة السابقة التى تقول بأن الشعر لم يتحدث عـــن الأم إلا فـــى الرثاء ، وكان ابتداء ذلك عند المتنبى.

(١) الأم فى الأدب : فتحى الإبيارى صـــ ٢٤ ، الدار القومية للطباعة والنشر

www.dar-alkotob.com دار الكتب

كما أننا عندما نتحدث عن ابن الرومى فى رثاء أمـــه ، نحـــاول أن نصحح المقولة القائلة بأن الصنوبرى هو أول من ساق قصيدة رثـــاء فـــى أمه (٠٠ لقد كان الصنوبرى من أقدم الشعراء الذين رثوا أمهاتهم إن لـــم يكن أقدمهم٠٠٠)(١)

ابن الرومى :

وقصيدة ابن الرومى فى رثاء أمه وهى من أطول قصائد الرثـاء ، إذ أنها تطول حتى تصل إلى مائتين وخمسة أبيات ، وهى قصيدة ميمية مـــن بحر الطويل قافيتها ساكنة ، يبدأها هذا الابن الملتاع بـــالحديث عـــن أثـــر الفاجعة على نفسه فيطلب من عينه أن تسعفه بالدموع بل بالدماء ، فليـــس كثيرا على من فقد أمه أن تجود عينه بالدماء ولا تستريح من البكـــاء ، ولا تميل إلى الكرى٠ لقد تقطع ما بينه وبين العيش من صلات ، فقـــد رمـــى ***بخطب يصعب على الجبال تحمله:-***

١-أفيضا دما إن الرزايا لها قيم ... فليس كثيرا أن تجـــود لهـــا بـــدم
٢-ولا تستريحا مـــن بكـــاء إلى كـــرى ... فلا حد ما لم تســـعدان علـــى الســـأم
٣-ويا لذة العيش التى كنـــت أرتضـــى ... تقطـــع مـــا بيـــنى وبينـــك فـــانصرم

(١) العصر العباسى الثانى، د٠ شوقى ضيف صـــ ٣٥٨ ٠ دار المعارف ، الطبعة السادسة٠

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وواضح أن الشاعر هنا يدخل بنا مباشرة إلى تصوير حاله ، ويصلنا رفضه للذات العيش ، ويلجأ إلى عينه طالباً منها إسعافه بالدموع بل بالدماء ، ثم يعلن سبب ذلك ، فقد رمى بخطب جلل لا تتحمله الجبال، لقد كان هذا الخطب الجلل وهو موت تلك الأم التى كان يحيا بروحها ، ***ويستدفع بها البلوى ، ويستكشف الغَمم:-***

٤-رميت بخطب لا يقوم لمثله شورى ولا رضوى ولا الهُضب من خيم
٥-بأنكر ذى ذكر واقطع ذى شبا وامقر ذى طعم وأوخم ذى وخم
٦-رزيئة أم كنت أحيا بروحها وأستدفع البلوى واستكشف الغمم

قضية جديرة بالمناقشة:-

وفى قصيدة ابن الرومى التى بين أيدينا ، قضية جديرة بالمناقشة ، وهى أن الشاعر بدأ قصيدته ببكاء هذه الأم فى أربعة وعشرين بيتا ، ثم ترك بكاء الأم ولجأ الى سوق القصص ، فقد بدأ الشاعر حديثه عن الدهر والمواعظ ، ثم ساق قصصا للتسلية ، وساق نماذج كثيرة لم تبق رغم ***منعتها وعزّتها ، ولم تصمد أمام الدهر ، وهو يصرح بقوله :-***

"أرى الدهر لا يبقى على حدثانه" ، وهذا المطلع يذكرنا بقصيدة أبى ذؤيب فى رثاء أولاده، عندما ساق قصصا ليسلو بها عن الفجيعة، كان

www.dar-alkotob.com دار الكتب

مطلع هذا القصص "الدهر لا يبقى على حدثانه" . على أن ابا ذؤيب قد بـدأ قصيدته بالتفجع ، ثم ساق هذا القصص ليسلو ،وينسى [1]

ولكن ابن الرومى يسوق هذا القصص من بدايـــة البيـت الخـامس والعشرين ، إلى البيت الخامس والثلاثين والمائة ، أى أنه ساق قصصا فى مائة وعشرة من الأبيات:-

أرى الدهر لا يبقى علـى حدثانـه شعيب الأعالى جـهورى إذا بغـم

ثم يسوق القصة .

ولا نقنق خاظى البضيع صمحمـح من الأكلات النار تأتج فى الفحـم

ثم يسوق القصة .

والمفترض أنه سلا بعد ذلك. ولكننا بعد هذا الكم الهائل من الأبيـات نجد الشاعر يعود إلى البكاء والتفجع على أمه تفجعا مرًا آسرا ، وشـجوا باكيا ، ونغما حزينا.

١٣٦- أحاملتى : أصبحت حمالا لحفـرة إذا حملت يوما فليس لها قبـر

١٣٧-أحاملتى : أستحمل الله روحـة إلى تلكم الروح الزكية والنسـم

١٣٨-أمر صفى: أسترضع الغيـثُ درّة لرمسك بل استغزر الدمع ما سـجم

---

[1] الاغانى حـ ٦ صـ٢٧٤، دار العودة بيروت مصورة عن مطبعة دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ويستمر ابن الرومى فى رثاء والدته فى تسعة وستين بيتـــا لا تخمـــد فيها عاطفته ، فهو يخاطب والدته بأنه سيحرم نفسه من النعيـــم والابتســـام ***والمرح، وكيف يمرح فوق الأرض ، وقد هيل التراب على تلك الأم:-***

أأمرح فوق الأرض يا أم والـــــثرى عليـــك مهيل قد تطابق وارتكـــم ؟

إنه لعزيز على نفسه أن يعيش وقد ماتت أمه ، ولكنه حكم المـــــوت، ***ولو قبل هذا الموت الفداء لبذله:-***

عزيـــز علينـــا أن تموتـــى وأننـــــا نعيش ولكن حُكّم الموت فـــاحتكم
ولو قبل المـــــوت الفـــداء بذلتـــه ولكنمـــا يعتـــام رائـــده الصيـــم

ثم يعود إلى تصوير حاله ، فهو سيبكى بمنثور الدمع تارة ، وبمنظوم الشعر تارة أخرى. ولو نظرت الأم إلى حاله بعـــد موتـــها ورأت ألمـــه ***لعرفت أن داهيته أشد ومصيبته أعظم:-***

ولو نظرت عينـــاك يـــا أم نظـــرة إلى ما توارى عنك مـــــنى واكتـــم
فقست بما ألقـــاه مـــا قـــد لقيتـــه شهدت بحـــــق أن داهيـــتى أطـــم

لقد صار لا يستحسن شيئا يراه ، ويستهجن كل ما يسمع مـــــن نغـــم وطرب ، وأصبحت الآمال والأمانى غادرة ، وفارق الخـــــلان ، وصـــار يأنس إلى الوحدة ، إنه يسمع كلمات الغزل فلا يطيب خاطره ، ولا تـــــهدأ نفسه ، كيف وقد أورثه فقد الأم وقدة فى القلب كالنار فى الضرم ، وكلّمـــا

لا يبرئه غير الله. هو الواهب السلوان ، لقد أظلمـت النفـوس بعقدهـا ، *وابيضت اللمم ، وأظلمت الدنيا وأجدبت الأرض:-*

ومادت لك الأجبال حـــتى كأنمـا شواهقها كانت بَمحيـــاك تُدَّعـم

وصار السحاب باكيا ، وناحت عليك الريح:-

وقامت عليك الجـن والإنـس مأتمـا تبكي صلاة الليل والخمص والهضم(١)
وأضحت عليك الوحش والطير وهمـا تبكي الرواء النضر والمخـبر العمـم

ومع هذه المشاركة من الكون كله بأنسه وجنّـه وسـحابه ورياحـه ووحشه وطيره حزن على هذه الأم ، فإن السموات العلى تغمرها السـعادة مستبشرة بروح هذه الأم.

ومادت لك الأجبال حـــتى كأنمـا شواهقها كانت بَمحيـــاك تُدَّعـم
وأما السموات العلـى فتباشـرت بروحك لما ضمّها ذلـــك المَضَـم

ويصف هذه الأم بأنها صوامة قوامة:-

لقد فجعت منك الليالى نفوســها بمحيية الأســحار حافظـة القيـم
ولم تخطىء الأيـــام فيـك فجيعـة بصوّامـة فيـهن طيّـبة الطعَـم
وفات بك الأيتام حصـــن كِنافـةٍ دفء عليهم ليلـة القُـرّ والشّـتم
رجعنـا وأفردنـاك غـير فريـدة من البر والمعروف والخير والكـرم

(١) أشار المحقق فى الهامش إلى أن النسخة (ع) فيها "أقامت" وعلق بقوله "وهى جيدة"

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ثم يختم قصيدته بالدعاء لهذه الأم بأنس المحل ووابل الديم:-

٢٠٣-فلا تعدمى أنس الخل فطالمـــا عكفت وآنست المحاريب فى الظلم
٢٠٤-كست قبرك القر المباكير حلـة مفتوحة من صفة الوبـــل والـــديم
٢٠٥-لها أرج بعـــد الرقـــاد كأنمـــا يحدث عما فيك مـــن طيّـــب(٢)

أما عن طول القصيدة، فقد لفت نظر الدكتور طه حسين، وقال عـــن ذلك إنه (٠٠شاعر مطيل ومطيـــل جـــداً يبلـــغ بقصيدتـــه المئـــات مـــن الأبيات٠٠)[١] وهذه حقيقة تمثلت فى كثير من قصائده وليس فـــى قصيـــدة الرثاء فقط. ولكن القضية التى تلفت النظر وتشغل الذهن هى ما لاحظنـــاه من سوق القصص بعد رثاء أمه،ثم العودة إلى الرثاء والرثاء الحاد، الدامع المفجع لهذه الأم بعد هذا القصص الطويل٠

الصنوبرى(٢) :-

يطالعنا صوت الصنوبرى فى رثاء أمه بعد صوت ابن الرومى، وقـد مرضت أم الشاعر مرضا شديدا، وذبل عودها وجفّ هـــذا العـــود حتـــى ماتت٠ ولذلك فنحن مع شاعر لا يواجه مرارة الموت بقـــدر مـــا يواجـــه

ديوان ابن الرومى : تحقيق د حسين نصار ٠ الجزء السادس صـــ ٢٢٩٩

(١) من حديث الشعر والنثر د طه حسين٠ صـــ١٣٤ دار المعارف الطبعة العاشرة

(٢) أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الصنوبرى٠ ترجم له ياقوت فى معجم البلدان عن حديثه عن(حلب) وهو من شـعراء العصر العباسى الثانى وتوفى سنة ٣٣٤ هـــ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

مرض الأم ومعاناتها وأناتها وما كانت تحدثه تلك الأنات فى نفس الشاعر، وظل هذا الحال حتى ماتت، ولذلك يبدأ الشاعر قصيدتـــه بتلـك اللفظـة (صوحت) ، قد صوحت روضتى ،ذبلت وجفت تلك الروضة. ويالها من جملة تقريرية أوجع فى النفس وآلم فى القلب من آلاف الاستعارات

قـد صوحـت روضـتى المونقـة ... وانـتزعت روحـى المورقـة
بـاب إلى الجنـة ودعتـه ... مذ رأيـت الموت قـد أغلقـه
لا يبعـدن مثـواك يـا أم مـا ... أبعـد مثـواك ومـا أسـحقه
قد صـدق المـوت الـذى لم أزل ... أحـذره فيـك وقـد حققـه
يقلـق أحشـائى مضجعـى ... تذكـرى أحشـاءك المقلقـة
وحملـك السـقم وأعبـاءه ... فى حسد أضعف مـن بروقـة(١)
لله أم مـايني حزمـا ... مجـددا أحـزان المخلقـة

والشاعر هنا يشير من بداية القصيدة إلى تلك الأم وقد صوح نبتـها بعد أن كان روضة غناء، وهو يرسم صورة لأمه بعد أن هدها وأسـقمها المرض وصدق الموت ما كان يحذره الابن كل يوم، ومن هنا عاد الشاعر سريعا بعد أربعة أبيات إلى تذكر تلك الأم ومعاناتها للآلام، فقـد حملـت ***الأسقام فى جسدها الضعيف وراحت تئن وتتوجع:-***

(١) البروق:شجر ضعيف له ثمر . لسان العرب مادة برق

www.dar-alkotob.com دار الكتب

كـــم أودعـــت أذنى مـــن أنـــــة تـــودع قلـــبى جمـــــرة محرقـــة
ومـــن تشـــك كنـــت أولى بـــــه أســـهمه فى كبـــــدى مطلقـــة
قول والأنفـــــاس قـــد صـــاعدت فى الصدر منـــها وهـــى كالمطرقـــة
باللمنايـــا كيـــف أنجـــــو بهـــــا مـــن كربهـــا وهـــى بهـــا محدقـــة
مـــن تتحـــامى أن تـــرى ظلمـــــة أســـكنتها فى ظلمـــــة مطبقـــة
ومـــن تضيـــق الأرض فى عينـــــها أهديتـــها للحفـــــرة الضيـــق

لقد أضناه ما أضناها، وأسقمه الذى أسقمها، فشكايتها كانت سهاما فى كبده، وأنينها كان جمرا فى صدره، ثم يظهر عجزه أمـــام المـــوت فـــى استفسارات حائرة، كيف ينجو بها والمنايا محدقة؟ وكيف أسكنها فى ظلمـــة مطبقة، وقد كانت تتحامى أن ترى الظلام؟ ومن تضيق الأرض فى عينها، كيف أهداها إلى تلك الحفرة الضيقة؟ ثم يختم قصيدته بالدعاء بالسقيا لذلـك الثرى الذى ترقد فيه:-

بكـــت ثـــرى أنـــت بـــه مزنـــة عيونهـــا بـــــالدمع مغرورقـــة
ولا خـــلا مـــن زاهـــر مشـــــرق مبتسم عـــن زهـــرة مشـــرقة(١)

المتنبى:-

نحن مع المتنبى فى هذه القصيدة نواجه بظـــروف عديـــدة،نواجـــه بالشاعر وعبقريته من ناحية، واعتزازه بنفسه وبفنه من ناحية أخرى ،وبأم

(١) ديوان الصنوبرى، تحقيق د/ إحسان عباس صـ٤٤٢ دارالثقافة، بيروت لبنان سنة ١٩٧٠ م

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ليست ككل الأمهات من ناحية ثالثة، فهى جدته التى ينتمى إليها أو تنتمـــى إليه، وهى كل أهله، وهو كل أهلها وكل شىء لها فى الحياة. والظـــروف التى ماتت فيها الجدة ظروف غير عادية، فقد يئست الجدة من طول غيـاب المتنبى، أصابها اليأس والقنوط، وفقدت كل أمل فى عودته، وفجأة وبعـــد طول غياب، وصلها منه كتاب، كان لها بمثابة الروح التـــى ردت إليـــها، وفرحت الجدة بهذا الكتاب فرحا شديدا ،وكم من فرح أعقب ترحـــا، لقـد حمت الجدة لساعتها وماتت.

تلك ظروف غير عادية أنشد فيها المتنبى قصيدته، وصور فجيعتـــه، والمتنبى لم يذكر أمه فى ديوانه لا راضيا ولا ســـاخطا ولا مســـرورا ولا مخزونا(١) ولم يرث المتنبى أحدا من أقاربه ســـوى جدتـــه، وأمـــا بقيـــة مرثياته فقد كانت فى أشخاص لا يمتون إليه بصلة قرابة(٢)

لقد أرسلت الجدة إلى المتنبى كتابا تبثه فيه شوقها، وتشكو من طـــول غيابه عنها، فتوجه المتنبى نحو العراق، ولم يتمكن من دخـــول الكوفـــة، فتوجه إلى بغداد، وكتب إليها المسير إليه، وكان ما كان من شدة فرحـــها وموتها، وتألم المتنبى ألما شديدا، وراح يبكيها مر البكاء.

---

(١)مع المتنبى: طه حسين صـــ١٧

(٢)الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى:د/ طه أبو كريشةصـــ١٥٦

www.dar-alkotob.com دار الكتب

قصيدة المتنبى فى رثاء جدته

مطلع القصيدة:-

ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذمـــا فما بطشها جهلا ولا كفـــها حلمـــا
إلى مثل ما كان الفتى مرجـــع الفـــتى يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى(٣)

وهو مطلع حائر قلق متردد، فالحوادث التى وقعت، وتســـببت فـــى غربته وبعده عن جدته، والحوادث التى حالت دون رجوعها إليها ، والتـــى كانت سببا فى موت الجدة دون أن يراها ودون أن تراه، ترى أيـــذم هـــذه الأحداث؟ إن الأحداث لا تبطش جهلا، ولا تكف حلما،. وإذن فلا مدح ولا ذم، فكل شىء بيد الله عز وجل وبإرادته، وإنما نسبة الفعل إلى الأحـــداث من المجاز، وسنة الحياة أن تكون بداية ونهاية وزيادة ونقصان.، ومن هنا يجد الشاعر نفسه مباشرة ودون أن تطول حيرته يبكى هذه الجـــدة التـــى فجعت بحبها، والتى قتلها الشوق والوجد إلى ابن عزيـــز، فـــهو حـــب لا يعاب، لأنه شوق الأم إلى ولدها.

لـــك الله مـــن مفجوعـــة بحبيـــها قتيلة شوقى غير ملحقـــها وصمـــا

ثم يعود إلى الحديث عن نفسه، وعن أثر الليالى والأحداث عليه ،فقـد تعود ذلك من الزمان وكر الليالى، فلما مـــاتت الجـــدة لـــم يكـــن الأمـــر ***بالمستغرب من الليالى وكرها:-***

(٣) الإبداء: الخلق، وأكرى الشىء: نقص، وأرمى:زاد

www.dar-alkotob.com دار الكتب

عرفت الليالى قبل ما صنعـــت بنـــا فلما دهتنى لم تـــزدنى بهـــا علمـــا

ثم يعود إلى الحديث عن جدته، فهى كانت تؤثر غيرها على نفســـها، وتعود إذا جاعت لتطعم الناس، وشبعها وريـــها وفرحتـــها وســـرورها إذا ***أشبعت الناس وجاعت هى:-***

منافعها ما ضـــر فى نفـــع غيرهـــا تغذى وتروى أن تجوع وأن تظمـــأ

ثم يقسم البيت الذى يليه بينه وبين جدته ، فهى قد أتاها كتابـــه بعـــد يأس وطول غياب، فماتت سرورا بالكتاب وما فيه، **ومات المتنبـــى غمـــا على جدته:-**

أتاها كتابى بعـــد يـــأس وترحـــة فماتت سرورا بى فمت بهـــا غمـــا

ثم ينتقل إلى الحديث عن نفسه فى بيت واحد أيضا، فإذا كان السرور قد قتل الجدة. ***فإنه سيحرم على نفسه السرور ولن يقربه لأنه كان ســـببا فى قتل الجدة:-***

حرام على قلـــبى الســـرور فـــإننى أعد الذى ماتت بـــه بعدهـــا ســـما

وهكذا من بداية القصيدة، وهو يرفض الابتعاد عن جدته، فإذا تحـــدث عن نفسه واصفا حاله فى بيت من الأبيات، ركض سريعا إلى جدته يصفها فى بيت آخر وهكذا. ثم تغير الحال بعد ذلك، وبداله أن الفـــراق حقيقـــة واقعة ولذا راح يباعد بينه وبين جدته فى الحديث، ونراه فى الأبيات التـــى

www.dar-alkotob.com دار الكتب

أتت بعد ذلك يصف جدته وحالها فى أربعة أبيات، وهذا لم يحدث من بداية القصيدة. إنه يصف حالها وهى تتطلع فى خطابه، وتتمعن فـــى حروفـه وسطوره، كأنها تريد أن ترى وليدها بين هاتيك السطور، إنها لا تصـــدق أن ابنها موجود، ولذا فهى ترى فى حروفه وسطوره شيئا عزيـــزا نـــادرا مثل الأغربة التى فى جناحها بياض. لقد راحت تملى نظرها فى الســطور وانكبت على الخطاب لثما وتقبيلا، حتى حول المداد محاجر عينيـــها مـــع الدموع إلى سواد، لقد أدمى حب الشاعر قلبها وهى حية، ولها هو المـــوت ينهى كل شيء، ***تجف الدموع والجفون، ويخمد هذا الحب العفيف:-***

تعجب من لفظى وخطـــى كأنمـا ... ترى بحروف السطر أغربه عصمـــا
وتلثمـــه حـــتى أصـــار مـــــداده ... محاجر عينيـــــها وأنيابهـــا ســـحما
رقاد دمعها الجارى وجفت دموعـها ... وفارق حى قلبها بعد مـــا أدمـــى
ولم يســـلها إلا المنايـــــا وإنمـــا ... أشد من السقم الذى أذهب السـقما

لقد ماتت الجدة وجفت دموعها ، وذهب سقمها ، بل وحبها لوليدهـا ، ومن هنا صار الشاعر وحده فى مواجهة الحياة، فى مواجهـــة الشـــامتين والحاقدين ، ولذا نراه وقد فرغ للحديث عن نفسه لا يتحرر فجأة ، ولكنـــه يتحدث عن الفراق وقد كان طلبا للرزق ، مع أن الجدة كانت راضية بـــه وحده قسما ونصيبا ، لو رضى هو وقنع ، وإذا كـــان الشـــاعر يستســـقى الغمام لقبرها ، فقد كان قبل ذلك يقاتل ويطلب من الرماح أن تسقيه دمـــاء الأعداء ، لقد كان قبل موتها يستعظم النوى ، ويتألم من الفراق ، فصـــار

www.dar-alkotob.com دار الكتب

هذا الفراق هونا يسيرا بجانب الفراق الأعظم وهـــو المـــوت٠ وإذا أخـــذ الشاعر ثأره من الأعداء فكيف يأخذ بثأره من الحمى التى انتزعت جدتـــه منه؟ لقد سدت السبل أمام الشاعر ، وما ذاك لضعف منه ، ولكـــن مـــوت الجدة حوله إلى أعمى يتخبط ، لا يرى الطريق ، ثم يصـــــرخ متحســـرا، واحسرتاه أن فاتنى وداعك وتقبيل رأسك وصدرك ، وقد ملئا حزما وحكمة وآسفاه إن فاتنى وداع تلك الروح الطيبة الطاهرة ، وكفاك فخرا أيتها الجدة أنك ولدت هذا الشاعر الفحل وإذا كان المتنبى قد تحدث عن جدتـــه فـــى أربعة أبيات سابقة ، فقد تحدث عن نفسه وعن جدته فـــى ثمانيـــة ***أبيـــات اشتركا فيها:-***

١-طلبت لها حظـــا ففـــاتت وفـــاتنى ... وقد رضيت بى لو رضيت بهـــا قســـما
٢-فأصبحت استسقى الغمام لقبرهـــــا ... وقد كنت استسقى الوغى والقنا الصمـد
٣-وكنت قبيل الموت استعظم النـــوى ... فقد صارت الصغرى التى كانت العظمى
٤-هبينى أخذت الثأر فيك من الفـــدى ... فكيف بأخذ الثأر فيـــك مـــن الحمـــى
٥-وما انسدت الدنيا علـــى لضيقـــها ... ولكـــن طرفـــا لا أراك بـــه أعمـــــى
٦-فـــوا أســـفا ألا أكـــب مقبـــــلا ... لصدرك والرأس الـــذى ملئـــا حزمـــا
٧- وألا ألاقى روحك الطيب الـــذى ... كان ذكى المسك كـــان لـــه جســـما
٨-ولو لم تكونى بنـــت أكـــرم والـــد ... لكان أباك الضخـــم كونـــك لى أمـــا

وقد كان هذا البيت الأخير ، الذى يقول فيه لجدته "إن أباك الضخـــم كونك لى أما" كان بابا واسعا لولوج إلى الفخر ومواجهة الشامتين والـــترفع ***عليهم والفخر بنفسه حين ينهى القصيدة بقوله:***

www.dar-alkotob.com دار الكتب

لئن لذ يـــــوم الشـــامتين بيومـــها لقد ولدت منى لأنفسهم رغمـــا (١)

إلى أن يقول :-

فلا عـــــبرت بى ســـاعة لا تعـــزنى ولا صحبتى مهجة تقبـــل الظلمـــا

المتنبى والوعى الفنى:

توزعت أبيات القصيدة بهذا الترتيب وجاءت على هذا النسق،فبيـــــت يقسمه هو وجدته ، وبيت له وبيت لجدته ، وأربعـــة أبيـــات خاصـــة بـــه وأخرى بعدها وبنفس عددها يتحدث عن جدته ، ثم ثمانية أبيـــات يشـــترك فيها مع جدته ، فهل يعنى هذا التوازن تصوير الشاعر للتلاحم والـــــترابط النفسى بين الشاعر وبين جدته؟ هل كان المتنبى على وعى بهذا التقســـــيم الدقيق لأبيات القصيدة؟ هل قصد المتنبى إلى تقسيم قصيدته إلى مقـــاطع ، المقطع الأول من ثمانية ابيات يقسمها بينه وبين جدته ، بين الحديث عـــن نفسه فى بيت ، ثم يتلوه بآخر عن جدته وهكذا- إلى آخر المقـــاطع؟ هـــل قصد هذا ذلك؟ وإذا لم يكن يقصد ، فهل تنازل عن الأنا المتضخمة عنـــده بحيث أنه كان يضع نفسه بجوار الممدوح ، حتى ولو كان ســـيف الدولـــة نفسه [ويكفى أن تراجع مدائحه ، فسوف نجد الكثير منها ينهض على تلـــك المعادلة المقدرة بين وجهين يتفوق كل منهما بما ليس فى الآخر ، ويكتمـــل

(١) شرح ديوان المتنبى للبازجى حـــ ١ صـــ ٣٤٨ ، دار صادر بيروت

www.dar-alkotob.com دار الكتب

كل منهما بصاحبه اكتمال العملة بوجهيها ، فلا تدرى هل كـــان الشـــاعر يضع عينه على ممدوحه فقط، أم ***كان يجلو نفسه من خلاله؟ وهـــل كـــان يراه وحده أم كان يرى نفسه معه:***

خليلـــى: إنى لا أرى غـــير شـــاعر ... فلم منهم الدعوى ومنى القصـــــائد
فلا تعجبـــا إن الســـيوف كثـــيرة ... ولكن سيف الدولة اليـــوم واحـــد

فتفرد الفنان بشعره برغم كثرة الأدعياء ، لا يحاكيه ويتوازى معه إلا تفرد سيف الدولة برغم كثرة السيوف وهو يعكس لنا اعتزاز المتنبى بنفسه حتى وهو يمدح سيف الدولة ، فهو يقرن نفسه بسيف الدولة ، أو فلنقل إنـــه يمدح سيف الدولة عندما يضعه بجواره ، ***وهو الذى يقول فـــى قصيدتـــه الذى يرثى فيها جدته:-***

تفرد لا مســـــتعظما غـــير نفســـه ... ولا قـــابلا إلا لخالقـــه حكمـــــــا

فهو لا يستعظم إلا نفسه ، ولا يقبل حكما غير حكم الخالق عز وجل، والواقع أن المتنبى لا يستطيع أن يفسح مكانا للآخرين بجواره ، حتى ولـــو كان هذا الاخر هو جدته التى ماتت شوقا إليه، والقصيدة التى بين أيدينـــا ، وإن كانت شاهد صدق على انه أفسح لجدته مكانا بجواره ، فهى آية صدق كذلك على أنه أغفل جدته بعد هذه الأبيات ، وتناساها ، وراح يفتخر بنفسه ملتفتا إلى ذاته ، فى اثنى عشر بيتا ، ***تحدث فيها عن نفسه محلقـــا فـــوق الوجود بذاته:-***

www.dar-alkotob.com دار الكتب

لئن لـــذ يـــوم الشـــامتين بموتهـــا ... لقد ولدت منى لأنفســـهم رغمـــا
تغرب لا مســـتعظما غـــير نفســـه ... ولا قـــابلا إلا لخالقـــه حكمـــــا
ولا ســـالكا إلا فـــؤاد عجاجـــة ... ولا واجـــد إلا لمكرمـــة طعمـــــا
يقولون لى ما أنت؟ فى كـــل بلـــدة ... وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يســـمى
كـــأن بنيـــهم عـــالمون بـــــأننى ... جلوب إليهم من معادنـــــه اليتمـــا
وما الجمع بين الماء والنار فى يـــدى ... بأصعب من ان أجمع الجد والفـــهما
ولكنـــنى مســـتنصر عنـــد بابـــه ... ومرتكب فى كل حال به الغشـــما
وجاعلـــه يـــوم اللقـــاء تحيـــــتى ... وإلا فلست السيد البطل القرما(١)

أبو فراس الحمدانى (١) :

بين يدى القصيدة:-

لقد أسر أبو فراس فى بلاد الروم ، وأرسل قصائد استعطاف إلى ابن عمه ليخلصه من أسره ، تلك القصائد التى عرفت هى وغيرها بالروميات،

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى : الشيخ ناصيف اليازجى ، المجلد الأول صـــ ٣٤٨

(١) أبو فراس الحمدانى (٣٢٠-٣٥٧هـ) هو أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدونى ، سماه والده الحارث ، وكنـــاه أبـــا فراس. وقد قتل والده وهو فى الثالثة من عمره ، وعاش يتيما تحضنه أمه ى ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة، ولما اســـتوى سيف الدولة على سرير الملك حمل معه أبا فراس ، و فى قصر الملك درس العلم و الأدب و تعلم الفروسية ، فاحتاه كمين مـــن الروم ، ففر أصحابه و قاتل وحده حتى أسر ، و بقى فى الأسر سبع سنوات إلى أن افتداه سيف الدولة. ومات سيف الدولـــة بعد عودة أبى فراس من سجنه بسنة واحدة ، و قد حاول أبو فراس أن ينصب من نفسه أميرا على حمص ، فأرسل أبو المعـــالى ابن سيف الدولة جنوده لقتال أبى فراس و هزيمته و قتله سنة ٣٥٧ هـــ .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وقد ذهب صوته أدراج الرياح ، مما هز تلك الأم ، وحركها مـــن "منبـــج" إلى "حلب" تستعطف سيف الدولة ، وتسفح الدموع أمامه ، علّه يرق لـــها، وينقذ ولدها ، ولم يستجب لها سيف الدولة ، وردّها خائبة تحمل فى قلبـــها حسرة وألما٠ ويصل الخبر إلى أبى فراس ، ***إلى الأسير فى بلاد الـــروم، ويجثم الهم على قلبه، وينفث قصيدة تضجّ بالألم وتفيض بالحزن:-***

يـــا حســـرة مـــا أكـــاد أحملـــها ... آخرهـــا مزعـــج وأولهـــا
عليلـــة بالشـــام مفـــــردة ... بـــات بـــأيدى العـــدى معللـــها
تمســـك أحشـــاءها علـــى حـــرق ... تطفئـــها والهمـــوم تشـــعلها

وهو يشير إلى تلك الأم التى باتت عليلة ، وعلتها هى شوقها إلـــى ابنـــها الأسير ، طبيبها ومعللها فى أيدى الأعداء٠ ومن ثم فهو يلجأ إلى مخاطبـــة أمه ، مناديا عليها ، مستشعرا وجودها رغم هذه الحواجز ، ***متأبيـــا علـــى المسافات والأسر إلى أن يقول:-***

يا أيـــها الراكبـــان هـــل لكمـــا ... فى حمـــل نجـــوى يخـــف محملـــها
قـــولاً لهـــا إن وعـــت مقالكمـــا ... وإن ذكـــرى لهـــــا ليذهلـــها

ثم يتجه إليها مباشرة بقوله:-

يـــا أمتـــــا هـــــذه منازلنـــا ... نتركـــــها تـــــارة ونزلهـــــا
يـــا أمتـــــا هـــــذه مواردنـــا ... نعلّـــــها تـــــارة وننهلـــــها

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وإذا كان الشاعر يحاول بهذه الكلمات أن يهدأ ويطامن مـــن خـــزن الأم، ويصور لها ما هو فيه على أنه أمر طبيعى وعادى ، فالأسر مـــنزل الشجعان والفرسان ، وليس بموطن لجبان ، وتلك أمور عادية ، ومـــوارد ينهل منها و يعل كل فارس صنديد ،ومع ذلـــك لا يســتطيع الشـــاعر أن يسترسل ، فهو أدرى الناس بان الأم لن تخدعها هذه الكلمات ، ولن تشغلها عن حزنها الذى يعتصرها ، ولذلك يلتفت مباشرة إلى ابن عمه

معاتبا ومطالبا إياه بتخليصه من الأسر [وبرغم أن القصيـــدة تحمـــل شيئا من التكرار فى صورة اللفظ و المعنى ، إلا إن الصدق العميق الـــذى يغلف القصيدة كلها ، يجعل لهذا التكرار مذاقا مختلفا ، فهو يـــدلا مـــن أن يصبح تطفلا على القصيدة ، يزيد من العمق فى المعنى العام الذى يريد أن يصل إليه ، ويشكل إضافة للبعد النفسى الذى يحاول الشـــعر أن يرســـمه بإتقان [1]

وقد ثقلت جراح أبى فراس فى أسره ، وكانت أكثر الجـــروح عليـــه جرح أمه الذى ينزف لغيابه وفراقه فأرسل إليها هذه الأبيـــات يصبرهـــا ***ويردها عن الجزع إلى الصبر الجميل :-***

وإن وراء الســـتر أمـــا بكاؤهـــا	على وإن طـــال الزمـــان طويـــل
فيا أمتا لا تعدمـــى الصـــبر إنـــه	إلى الخير والنجح القريب رســـول

(١)دراسات فى الأدب العربى : محمد إبراهيم أبو سنه صـــ٥٣ سلسلة إقرأ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ويا أمتـــا لا تخطـئ الأجـــر إنـــه ... على قدر الصبر الجميـــل جزيـــل
أما لك فى ذات النطـــاقين أســـوة ... بمكة والحرب الصوان تجـــول(٢)

أبو فراس يبكى أمه:-

وسط هذا الجو النفسى المؤلم، والأسر والقلق وعدم الفداء، مـــاتت أم أبى فراس، وبلغه الخبر وهو فى الأسر، وراح الشاعر الفارس يتلوى مـــن ***الألم وعزفت قيثارة الشعر هذا الصوت النائح الباكى:-***

أيـــا أم الأســـير ســـقاك غيـــث ... بكره منـــك مـــا لقـــى الأســـير
أيـــا أم الأســـير ســـقاك غيـــث ... تحـــير لا يقيـــم ولا يســـير
أيا أم الأسير سقاك غيـــــــث ... إلى من بالفدا يأتى البشيـــــــر

بهذه الجمل النائحة النادبة يفتتح الشاعر مرثيته، طالبا لأمه الرحمـــة والمغفرة والسقيا. لقد كان ينتظر الخروج من الأسر لتكون فرحة أمه، لقد كان يتمنى الفكاك من أسره ، لا لشئ إلا لتسعد بهذا الخبر ، كان يتمنى أن يخرج لتراه فى أحسن زينة ، وها هى أمانيه تذهب أدراج الرياح.

إذا ابنـــك ســـار فى بـــر وبحـــر ... فمـــن يدعـــو لـــه أو يســـتجير
حـــرام أن يبيـــت قريـــر عـــين ... ولـــؤم أن يلـــم بـــه الســـرور
وقـــد ذقـــت المنايـــا والرزايـــا ... ولا ولـــد لديـــك ولا عشـــير
وغاب حبيب قلبك عن مكـــان ... ملائكة السماء به حضور

(٢) ديوان أبى فراس : صـ ٢٣٣

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فى أربعة أبيات يتحدث الشاعر عن حاله بعد فقد والدته ، لقـــد فقـد القلب الرحيم الذى يدعو له ، ولذا فحرام عليه أن تقر عينه ، وأن يلم بـــه السرور مجرد إلمام ، بعد أن ذاقت أمه المنايا فى غيابه ، ***وشيعتها ملائكة السماء:-***

ليبكك كـــل يـــوم صمـــت فيـــه مصـــابرة وقـــد حمـــى الهجـــــير
ليبكك كـــــل ليـــل قمـــت فيـــه إلى أن يبتـــدى الفجـــر المنـــــير
ليبكك كـــــل مضطـــهد مخـــوف أجرتيـــه وقـــد قـــــل المجـــــير
ليبكك كل مسكين فقيـــــــــر أغثتيه وما فى العظم ديـــــر(١)

أربعة أبيات تالية يتحدث الشاعر فيها عن الأم ، ومآثرها ، فقد كانت صوامة قوامة ، مجيرة للخائف ، مؤثرة للفقير على نفسها حتى ولو كـــانت آخر لقمة عندها.

والشاعر لا يسوق هذه المآثر فى جمل تقريرية ، وإنما يصورها وقـد افتقد المسكين عطفها ، واحتاج الخائف إلى أمانها ، فصارا يبكيان عليـــها ، وتفقدها موضع سجودها وحن إليها ، وبكى عليها:-

أيـــا أمـــاه كـــم هـــم طويـــــل مضى بـــك لم يكـــن منـــه نصـــير
أيـــا أمـــاه كـــم ســـر مصـــــون بقلبك مـــات ليـــس لـــه ظـــهور
أيا أماه كم بشرى بقـــــــربى أتتك ودونها الأجل القصيـــــــر

(١) مر : تركت الثلج يرادأى ذابا رفقا للهطل رحمة المغرب، هو:الذى كان سمسما ى العظام

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وهو فى هذه الأبيات يندب تلك الأم ، ويبكى مـــا أصابـــها ، مناديـــا عليها ولا مجيب ، مكررا النداء ولا استجابة ، كم أصابها من هم طال بـــها دون نصير أو مدافع ، لقد كانت مستودع أسرار ، وماتت ومعها أســـرار كثيرة ، وكم انتها من بشارات بقرب اللقاء ، ***وحال الأجل دون تحقيق هذه الأمانى:-***

إلى مـــن أشـــتكى ولـــن أنـــاجى ... إذا ضـــاقت بمـــا فيـــها الصـــدور
بـــأى دعـــاء داعيـــة أوقـــى ... بـــأى ضيـــاء وجـــه اســـتنير
بمـــن يســـتدفع القـــدر الموقـــى ... بمـــن يســـتفتح الأمـــر العســـير
نسلى عنك أنا عن قليـــــل ... إلى ما صورت فى الأخرى نسيـــر

وهكذا فى أربعة أبيات أخيرة يختم الشاعر بها قصيدته ، يعود إلـــى الحديث عن حاله بعد فقد والدته ، فى أسئلة حيرى لا تجـــد لـــها إجابـــة، غرضها الإقرار بالعجز والضعف والخسارة الفادحة ، لمن يشكو؟ ومـــن يناجى إذا ضاقت الصدور واحتاج الابن إلى من يناجيه؟ من الذى يدعو له بالوقاية من الشرور؟ بأى وجه يستنير وقد كان وجهها الضياء والنور لـــه؟ بمن يستدفع القدر؟ وبمن يستفتح الأمر العسير؟ لقد كانت عونا له وســـندا فى الأمور كلها. أيهنأ له عيش؟ أيستطيع العيش بدونها؟ إن العزاء الوحيد لهذا الابن بعد فقد أمه ، أنه لاحق بها عما قليل ، وأنه صـــائر إلـــى مـــا صارت إليه.

www.dar-alkotob.com دار الكتب

❑ بين المتنبى وأبى فراس:-

هناك صلة ما تربط بين المتنبى وأبى فراس٠ ولا أعنى بهذه الصلة بلاط سيف الدولة الذى ضمهما معا ، ولا العزة وطّلب المجد الذى يجمع بينهما ، ولا شاعرية كلا منهما ، ولكن الصلة التى أقصدها هى ما يخص الموضوع الذى نحن بصدده ، وهو رثاء الأم٠ فالذى رثى المتنبى هو جدته ، وقد قتل والد أبى فراس وهو فى الثالثة من عمره ، وعاش يتيما تحتضنه أمه أيضا٠ هذه واحدة تجمع بين الشاعرين٠ والثانية أن جده المتنبى قد ماتت وهو غائب عنها٠ وكذلك ماتت أم سيف الدولة وهو غائب عنها فى غياهب جب الأسر٠ والثالثة أن المتنبى أرسل رسالة لجدته يخبرها فيه بعودته ، وكذلك أرسل سيف الدولة قصيدة إلى أمه يشير عليها بالصبر والتأسى٠

ولكن واحدة تباعد بين المتنبى وأبى فراس وهى واحدة لها خطرها وأثرها فى بناء القصيدة ، وهذه الواحدة الفارقة هى الظروف التى كان يعيشها أبو فراس وقت إنشاء قصيدته ، لقد كان أسيرا فى أيدى الروم، وكم أرسل القصيدة تلو القصيدة يستعطف فيها سيف الدولة ليخلصه من الأسر ، ولكنه بقى فى أسره سبع سنوات ، وقد راحت أمه تستعطف سيف الدولة فردها خائبة ، ***وراح أبو فراس يجتر أحزانه فى أسره عاتبا على سيف الدولة:-***

www.dar-alkotob.com دار الكتب

بـــأى عـــذر رددت والهـــــة ... عليـــك دون الـــــورى معولهـــا
جـــاءتك تمتـــــاح رد واحدهـــا ... ينتظـــر النـــاس كيـــف تقفلـــها(١)

وهى ظروف نفسية كان لها تأثيرها على رثاء أبى فراس لأمه ، بعكـــس المتنبى وقد كان حرا طليقا ، ومن هنا فقد ملأ قصيدته بـــالفخر والتحـــدى للآخرين.

الوعى الفنى عند الشاعرين:-

انقسمت القصيدة عند المتنبى وعند أبى فراس إلى مقاطع متســـاوية ، وقد توزعت بين الحديث عن الأم والحديث عن الشاعر من ناحية أخرى.

وقد اتضحت هذه الظاهرة عند أبى فراس بصورة جلية. ومن يرجـــع إلى "كتاب فى ميزان النقد الأدبى"(٢) يلاحظ تقسيم المؤلف للقصيـــدة إلـــى مقاطع متساوية تماما ، يتكون المقطع الأول من أربعة أبيـــات ، وكذلـــك المقطع الثانى والثالث والمقطع الرابع ثلاثة أبيـــات ، والمقطـــع الخـــامس أربعة أبيات. ومن هنا نجد توزع عاطفة الشاعر بينه وبين أمه.

(١)ديوان أبى فراس صـــ٢٤٣

(٢) فى ميزان النقد الأدبى. د طه أبو كريشة صـــ ١٤٢

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وكذلك فعل المتنبى حين قسم قصيدته إلى مقاطع بينه وبين جدتـــه ، وإن كان فى نهاية القصيدة قد غلبته أثرته وحبه لنفسه ، فـاختتم قصيدتـه بالفخر والحديث عن نفسه.

الشريف الرضى:-

من الشعراء الذين بكوا الأم بكاءا مرا مؤثرا يقطع نيـــاط القلـوب: الشريف الرضى فقد رثاها فى سنة ٣٨٥ هـ فى قصيدة طويلة تربو علـى خمسة وستين بيتا. وقد ماتت وعنده ست وعشرون ســنة[1]وقـد جـاءت قصيدته فى أمه عميقة مؤثرة ، سكب فيها عصارة قلبه ، واسمى مشـاعره وأحاسيسه ، فهو حائر ملتاع متفجع ، يتمنى لو ينفعه البكاء أو القـــول أو التصبر ، ولكنه يعلم أن كل ذلك لا يعيد مفقودا أو يرد ميتا. إنه يتقلب بين التصبر تارة ، وبين الدموع تارة أخرى ، وتارة ثالثة يغلبه الحياء ، إنـــه يغالب دمعه ويستره ، مبديا التجلد لعدوه ، ***ولو كان يفتدى ميت أو يدفـــع حمام ، لتكدست عصب وراء لوائه:-***

أبكيـك لـو نقـع الغليـل بكـــائى ... واقـول لـو ذهـب المقـال بدائـــى
وأعـوذ بالصـبر الجميـــل معزيـــا ... لـو كـان بالصـبر الجميـل عزائـــى
طوراتكـــاثرنى الدمـــوع وتـــارة ... آوى إلى أكرومـــــتى وحيـــــائى
كـــم عـــبرة موهتـــها بأنـــاملى ... وســـترقا متجمـــلا بردائـــــى

(١) ولد الشريف الرضى فى سنة ٣٥٩ هـ وتوفى سنة ٤٠٦ هـ عن سبع وأربعين ســنة. انظـر: الشـريف الرضى : حياته وشعره. حسن جعفر نور الدين صـ ٦٥

www.dar-alkotob.com دار الكتب

لو كان يدفع ذا الحمام بقـــــــــوة لتكدست عصب وراء لوائـــــــــى

ويلجأ بعد ذلك إلى الفخر، فيرسم لوحة لهذه العصبة ، فهم مدربون علـــى القراع ، تفيأوا ظل الرماح، يمشون وقد لبسوا الدروع فإذا هم كـــالصخور الصماء فى الصلابة والقوة، تبرق دروعهم، وترعد صوارمـــــهم، وســـط الغبار ووابل الدماء.

وهو لم يلجأ إلى الفخر لمجرد الميل إلى الفخر ، ولكنـــه يعـــرف ترصـــد الأعداء له ، وتربصهم به وشماتتهم فيه ، ولذا فهو يبدى التجلد لهذا العـــدو ، ولو اطلعوا على ما أصابه لشفت نفوسهم. وبعد ذلك يعود إلـــى تذكـــر حاله ، ووصف مآله ، لقد فارقه تماسكه وخانه تجلـــده ، ***ونســـى التعـــزز والإباء:-***

فـــارقت فيـــك تماســـكى وتجملـــى ونســـيت فيـــك تعـــززى وإبـــائى
وصنعت مـــا ثلـــم الوفـــاء صنيعـــه مما عـــــرانى مـــن جـــوى البرحـــاء
كم زفرة ضعفـــــت فصـــارت أنـــة تممتـــــها يتنفـــــس الصعـــــداء
لهفان أنزو فى حبائل كربـــــــة ملكت على جلادتى وغبائـــــى

ومن ثم يعرج على الزمان والدنيا، فقـــد جـــرى الزمـــان علـــى عادتـــه ومكايدته، فقلب الآمال وعكس الرجاء، لقد كـــان يـــود أن يكـــون الفـــداء لأمه، فإذا هى التى تتقدمه، وتفرق القرباء وهذا هو شأن الدنيا"للمنع آونـــة وللإعطاء"، تبادلك الصفاء تارة، والبغضاء تارة أخرى. مهما طال عمـــر الإنسان كروحة الراكب قضاها وجد فى الإسراء. وبعد هذه اللوحة التـــى رسمها للزمان، يعود إلى أمه متحدثا عن عظمة تلك الأم العفيفة الزاهـــدة

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الصائمة القائمة ، أينما قلب بصره وجد فضلها ومآثرها الباقية ، صنـــائع معروف تقر نواظره فتطفر العين بالدمع على صاحبة هـــذه الأيـــادى. إن هذه ***الأيادى خلدت تلك الأم وإن رحلت بجسدها .***

أنضيـــت عيشـــك عفـــة وزهـــادة ... وطرحـــت مثقلـــة مـــن الأعبـــاء
بصيام يوم القيـــظ تلـــهب شمســـه ... وقيـــام طـــول الليلـــة الليـــلاء
ما كان يوما بـــالغبن مـــن اشـــترى ... رغـــد الجنـــان بعيشـــة خشـــناء
لـــو كـــان مثلـــك كـــل أم بـــرة ... غـــنى البنـــون بمـــا عـــن الأبنـــاء
كيف السلو وكـــل موقـــع لحظـــة ... أثـــر لفضلـــك خـــالد بـــإزائى
فعـــلات معـــروف تقـــر نواظـــرى ... فتكـــون أجلـــب جـــالب لبكـــائى
ما مات من نزع البقاء وذكـــره ... بالصالحات بعد فى الأحيـــاء

وعند هذا الحد ، وبعد أن اتقى الأعداء بوصف حاله والفخر بقوتـــه، وبعد أن مدح والدته بما تستحق مؤكدا على أنها باقية بمآثرها ، لم يبـــق إلا الشاعر ، وإلا المصيبة وجها لوجه مرة أخرى ، ليس فيها عدو ولا دهـــر ولا بقاء ، ولا يجد الشاعر مرة أخرى إلا الذكريات ، إلا مـــا كـــانت الأم تفعله فى حياتها من دعاء وحب وعون مادى ومعنوى ، لا يجد إلا مـــآثر أمه يتترس بها فى مواجهة المصيبة، فساعة تسعفه هذه المـــآثر، وســـاعة يخر ***ضعيفا فزعا يتقلب فى الظلال كأنها الرمضاء:-***

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فبأى كف استجن وأتقى ... صرف النوائب أم بأى دعاء؟
ومن الممول لى إذا ضاقت يدى ... ومن المعلل لى من الأدواء؟
ومن الذى إن ساورتنى نكبة ... كان الموقى لى من الأسواء؟
أم من يلط على ستر دعائه ... حرما من البأساء والضراء؟
رزءان يزدادان ، طول تجدد ... أبد الزمان: فناؤها وبقائى
شهد الخلائق أنها لنجيبة ... بدليل من ولدت من النجباء
فى كل مظلم أزمة أو ضيقة ... يبدو لها أثر اليد البيضاء
ذخرت لنا الذكر الجميل إذا انقضى ... ما يذخر الآباء للأبناء
قد كنت آمل أن يكون أمامها ... يومى وتشفق أن تكون ورائى
كم آمر لى بالتصبر هاج لى ... داء وقدر إن يكون دوائى
آوى إلى برد الظلال كأننى ... فزع اللديغ نبا عن الإغفاء
وأهب من طيب المنام تفزعا ... لتحرقى آوى إلى الرمضاء

ويعود الشاعر مازجا المدح بالفخر ، فى محاولة لرفع هذا الكيان الذى هوى وتماسك هذا الجبل الذى اندك ، إنهم آباء وأصول هذه الأم ، الذين نصروا الحق ، ودعوا إلى الهدى ، وكشفوا الغمة وتستموا الغلياء ، مع سداد القول والرأى ، رغم شدتهم يرجون تكرما ، ورغم لينهم فهم يرهبون تخوفا ، لقد ذهبوا مع الذاهبين ، ***ولكن بعد أن عبدوا طرق العلياء والرفعة:-***

آباؤك الغر الذين تفجرت ... بهم ينابيع من النعماء
من ناصر للحق أو داع إلى ... سبل الهدى أو كاشف الغماء

www.dar-alkotob.com دار الكتب

نزلوا بعرعرة الســـنام مـــن العلـــى وعلوا على الأشـــباح والأمطـــاء(١)
من كل مستبق اليديـــن إلى النـــدى ومســـــدد الأقـــــوال والآراء
يرجى على النظـــر الحديـــد تكرمـــا ويخـــاف فى الإطـــراق والإغضـــاء
درجوا على أثر القرون وخلفـــوا طرقا معبدة من العليـــــــــاء

والشاعر فى محاولة للتماسك يلوذ مرة بالفخر ، وأخـــرى بالتأســـى بالسابقين ولكنها محاولات وقتية، سرعان ما يفيق بعدها فلا يجد أمامـــه إلا مصابه، هو هو لم يتغير، ولم يتوار، إنه الموت، إنه القبر، ومن هنا يعـــود الشاعر للالتحام مرة أخرى مع فجيعته، ويرود نفسه على التصدى لـــــها ، لقد كان خلالها فى الأبيات السابقة يحدث أمه ، يحدث أمـــه التـــى كـــانت وكانت ، والآن وبعد محاولات مضنية للتماسك ، لم يعد هنـــاك مـــن أم ، وإنما هو القبر ، **نراه يخاطب القبر**:" يا قبر، ويالها من لحظة يائسة تلـــك التى أفاق فيها الشاعر من أوهامه وتجسد مصابـــه أمامـــه، هـــو المـــوت إذن ، وهو القبر لا جدال". يا قـــبر أمنحـــه الـــهوى، إذا كـــانت الأم قـــد غابت، فلا بديل من القبر، ولم لا ؟ والقبر يضم بين جوانحـــه هـــذه الأم، ليمنحه الهوى ويضمه ويود لو انسابت السماء أمطارا دامعة عليـــها، هـــو الدعاء بالسقيا لهذا القبر، فلتجلجل الرعود مقتادة مثقلة الغمـــام، وعـــذراء السحاب ، لتغذو الجميم بروضة عذراء ، ولكن ما له يوكل سقيا القـــبر ، ويكل هذه المهمة إلى السماء ، إنه لؤم منه ، أن يكل هذا الأمر إلى السماء

(١) عرعرة السنام: رأسه ، الأنياح جمع تيح: من بين الكاحل إلى الظهر، الأمطاء جمع مطا وهو الظهر

www.dar-alkotob.com دار الكتب

، ولم لا يسقى القبر بدموعه؟ ، إن هذا الفيض من الدموع وهذه السحابات من الأحزان لكفيلة بهذا الأمر.

يا قبر أمنحه الهوى وأود لو ... نزفت عليه دموع كل سماء
لا زال مرتجز الرعود مجلجل ... هزج البوارق مجلب الضوضاء

يرغو رغاء العود جمجعه السرى ... وينوء نوء المعرب العشراء(١)
يقتاد مثقلة الغمام كأنما ... ينهضن بالعقدات والأنقاء
يهفو بها جنح الدجى ويسوقها ... سوق البطاء بعاصف هوجاء
يرميك بأرقها بأفلاذ الحيا ... ويغض فيك لطائم الأنداد(١)
متحليا عذراء كل سحابة ... تغزو الجميم بروضة عذراء
للؤمت إن لم أسقها بمدامعي ... ووكلت سقياها إلى الأنواء

لقد وصل الشاعر بعد وقفته على القبر إلى مرحلة اليقين والهدوء النفسى ، لقد ماتت الأم، وها هو القبر، بل ها هى قبور السابقين من قومه، ها هى قبورهم تملأ الساحة أيضا، وها هو يتحسر على هؤلاء أيضا، ولقد توزعت المصيبة، أصبحت مصيبة عامة، والهفتاه على هؤلاء القوم، توسدوا التراب، وكحل التراب جفونهم، وقد كان حريصا على الحفاظ عليها من القذى لقد قرب الضريح، وتباعدت الأرواح. إن المعروف الذى

(١) العشراء : التى مضى لحملها عشرة اشهر ، والعقدات جمع عقدة وهو ما تراكم من رمل ، والأنقاء جمع نقا وهى القطعة من الرمل

(١) لطائم الأنداء : لطائم جمع لطيمة وهو وعاء المسك

قدمته هذه الأم هو سميرها وأنيسها، وصالح الأعمال هو الضياء لها فـــى قبرها. أما هو فلا عيش ولا كتائب، ولا عدد ولا عناء، لم يعد يملك لـــها إلا الدعاء. فقد كان فعلها يرضى الله ، ورحمتـــه ســـترضيها وصلاتـــها المتواصلة قبل الموت ، ستكون صلاة ورحمة من الله. وعندمـــا يصـــل الشاعر إلى هذه القناعة يقول لها لو كان صفيح القبر يبلغك رســـائلى ، أو يسمعك التراب النداء لسمعت طول تأوهه

وتفجعه، ***ولكن الصفائح والتراب تحولان دون ذلك وهو منتـــهى التســـليم واليقين فى نهاية القصيدة :-***

لهفى علـــى القـــوم الأولى غـــادرقم ... وعليـــهم طبـــق مـــــن البيـــــداء
متوســـدين علـــى الخـــدود كأنمـــا ... كرعوا على ظمـــأ مـــن الصـــهباء
صور ضننت على العيـــون بلحظـــها ... أمسيت أوقرهـــا مـــن البوغـــاء(١)
ونواظـــر كحـــل الـــتراب جفونهـــا ... قد كنـــت أحرســـها مـــن الأقـــذاء
قربت ضرائحـــهم علـــى زوارهـــا ... ونـــأوا عـــن الطـــلاب أى تنـــائى
ولبئس مـــا تلقـــى بعقـــر ديـــارهم ... أذن المصيـــخ لهـــا وعـــين الرائـــى
معروفك الســـامى أنيســـك كلمـــا ... ورد الظـــلام بوحشـــة الغـــبراء
وضيـــاء مـــا قدمتـــه مـــن صـــالح ... لك فى الدجى بدل مـــن الأضـــواء
إن الذى أرضـــاه فعلـــك لا يـــزل ... ترضيـــك رحمتـــه صبـــاح مســـاء
صلى عليك ومـــا فقـــدت صلاتـــه ... قبـــل الـــردى وجـــزاك أى جـــزاء
لو كان يبلغـــك الصفيـــح رســـائلى ... أو كان يســـمعك الـــتراب ندائـــى
لسمعت طـــول تـــأوهى وتفجعـــى ... وعلمت حســـن رعـــايتى ووفـــائى

(١) البوغاء : التربة الرخوة ، أوقرها : أحملها

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

كان ارتكاضي فى حشاك بتـــــــــا ركض الغليل عليك فى أحشائى(٢)

وتلمح من خلال القصيدة شدة الفجيعة فى بداية القصيدة ، ومحاولـــة التماسك ، ومحاولة الثبات ، حتى يصل إلى قناعة الحقيقة فى النهايـــة ولا يملك إلا الدعاء لهذه الأم. هذا التدرج العاطفى فى القصيدة من بدايتها إلى نهايتها ، والذى بدأ فيه الشاعر عاطفة مضطرمة ، تبكى وتتفجع وتحـــاول التصبر وتترس بالجيوش والعتاد ، وتفاخر بالحسب والنسب ، حتى تصـــل إلى القبر فتخف هذه العاطفة وتتوزع المصيبة ، فالموت ســـيف مصلـــت على الجميع ، ولم يعد يملك الشاعر لأمه إلا الدعاء ، ولنينفعها إلا عملـــها الصالح. وهو تدرج طبيعى يعطى القصيدة وحدة داخلية وربطا طبيعيا.

أبو العلاء المعرى :

بلغ أبو العلاء المعرى خبر وفاة أمه وهو فـــى طريقـــه إليـــها مـــن العراق، فكان الوقع مؤلما، ***وراح يبكيها بمعان تفجـــر الدمـــع وتســـتثير النفس، ومطلعها:***

سمعـــت نعيـــها صمـــى صمـــــام وإن قـــال العـــواذل لا همـــام(١)

---

(٢) ديوان الشريف الرضى جـــ ١ صـــ ٢٦ . بيروت دار صاد - سنة ١٩٨٣م

(١) شروح سقط الزند : القسم الرابع السفر الثانى : الدار القومية للطباعة والنشر صـــ ١٤١٣

www.dar-alkotob.com دار الكتب

والقصيدة تقع فى أربعة وستين بيتا. وهى من بحر الوافر:-

تشتت العاطفة وتجمعها :

وهكذا ترى القصيدة كاملة تعالج من بدايتها إلى نهايتها فكرة واحـــدة هي رثاء الأب . والشاعر مشغول من أول بيت إلى آخر بيت بالحديث عن الموت ، حديث المسلم به ، المؤكد على أنه لا يسلم منه أحد .

ولا نستطيع أن نضع عنوانا لكل مجموعة من الأبيـــات ، فـــهو لـــم يصف حاله مثلا وأثر الفجيعة عليه ، ثم عمد إلى أمه فمدحها ، ثم ، ثـــم ، ولكننا هنا نرى اللب الحائر والذهن المشتت ، والفكر المتبعثر مـــن هـــول المصيبة فهو فى البيت الأول قد سمع بالمصيبة الكبيرة ، وفى الثانى يعـــز عليه أن أمه قد سبقته ، وفى الثالث يكبر عليه أن يرثيها اللسان بلفظ يسلك هذه المسالك من طعام وشراب ، فهى أرفع من ذلك. وفى البيت الرابـــــع يتحدث عن اثر المصيبة على نفسه ، فمع أنه يأكل علـــــى أســـنانه إلا أن مرور لفظ الرثاء يهشمها ويحطمها كأن هذه النواجذ قد قذفـــت بصخـــر ، وفى البيت السادس يتمنى أن يصوغ من الشهب شعرا يرثيها به .

وفى السابع يصف حاله ويتمه، مع أنها ماتت وقد اكتهل ومع ذلـــك كأنه رضيع لم يفطم بعد ، وفى البيت الثامن والتاسع ينادى على من يبلـــغ روحها أرج السلام ذكيا مضمخا بالمسك والكافور. وهكذا نلمـــح تشـــتت

www.dar-alkotob.com دار الكتب

العاطفة مما يرسم صورة واضحة لتكاتف هذا التشتت وتعاضده فى تجميع هذه العاطفة المشتتة وتآلفها لرسم صورة لهذا الشتات.

سمعت نعيها صحى صمام ... وإن قال العواذل لا همام(١)
وأمتنى إلى الأحداث أم ... يعز على أن سارت أمامى
وأكبر أن يرثيها لسان ... بلفظ سالك طرق الطعام
كأن نواجذى رديت بصخر ... ولم يمرر بمن سوى كلامى
ومن لى أن أصوغ الشهب شعرا ... فألبس قبرها سمطى نظام
مضت وقد اكتهلت وخلت أنى ... رضيع ما بلغت مدى الفطام
فيا ركب المنون أما رسول ... يبلغ روحها أرج السلام
ذكيا يصحب الكافور منه ... بمثل المسك مفضوض الختام(٢)

□ (٣)اللغة والعاطفة:-

ويسلو أبو العلاء المعرى ، ويسوق قصص هذه الحمامة التى حزنت على أخيها ، وهنا نجد لغة أبى العلاء وقد أصبحت عويصة تحتاج إلى تفسير فى كل لفظة ،مع أن الأبيات السابقة عليها كانت واضحة غير محتاجة إلى شرح.

(١) صمى صمام : أى لا يسمع لك بذكر والمراد الداهية "صمام" أى سمعت نعيها فأصمنى وأوحمنى ، وإن قال العواذل ليس مثلك ممن يهتم ويجزع

(٢) شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثانى صـ ١٤١٣

(٣) مع إيماننا بصعوبة ووعورة الألفاظ عند المعرى إلا أننا نلاحظ الفارق فى المستوى اللغوى بين أبيات الرثاء وغيرها

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وقد بدأ من البيت العاشر حتى البيت الرابع عشر فى ســـوق تلـك الأبيات الصعبة :-

١٠-ألا نبـهنى قينـــات بـــث بشـــمن غضـــى فملـــن إلى بشـــام
١١-وحماء العـــلاط يضيـــق فوهـــا بما فى الصـــدر مـــن صفـــة الغـــرام
١٢-تداعى مصعدا فى الجيد وجـــدا ففـــال الطـــوق منـــها بانفصـــام
١٣-أشاعت قبلها وبكـــت أخاهـــا فأضحت وهـــى خنســـاء الخمـــام
١٤-شجتك بظاهر كقريض ليلـــى وباطنـــه عويـــص أبى حـــزام

ولو رحنا نتجول خلال هذا النص فى محاولة لفهمه دون الاســـتعانة بالشروح لصعب علينا ذلك ولتعثرنا وسط صخوره٠ ولو رحنـــا نســـتقرأ الشروح لعلمنا أنه فى البيت العاشر وما بعده : يطلب من الحمائم الحزينـــة أن تنبهه إن غفل عن الوجد والجزع حتى يكون شجوه دائما غير منقطـــع ، فرب مطوقة تزاحم الوجد فى جيدها فأنتفخ وضاق عنه الطوق وانفصم فقد فقدت أخاها وهى تبكى عليه كما بكت الخنساء صخـــرا، هـــذه المطوقـــة شجتك بشعر حسن واضح مفهوم كشعر ليلى الأخيلية ، وشـــجتك بشـــعر صعب غريب كشعر أبى حزام العكلى ، وشعره كله عويص وكان يكـــثر من الغريب فى شعره فلا يفهمه إلا العلماء ، وكانت تؤخذ عنه اللغة(١) ثم تحدث أبو العلاء عن أمه مرة أخرى فعـــادت الألفـــاظ إلـــى الوضـــوح والسهولة.

(١) شروح سقط الزند : السفر الثانى : القسم الرابع صـــ ١٤٢٥

www.dar-alkotob.com دار الكتب

سألت متى اللقاء فقيل حتى يقوم الهامدون من الرجام
-ولو حدوا الفراق بعمر نسر طفقت أعد أعمار السمام
فليت أذين يوم الحشر نادى فأجهشت الرمام إلى الرمام

وهو فى هذه الأبيات يتشوق إلى لقاء هـــذه الأم ويتمنـــى أن يكـــون الحشر قريبا للقاء هذه الأم. ***ثم تعود اللغة إلى الوعورة والإغاز بمصطلحات العلوم وذلك فى مثل قوله:-***

وصرفنى فغيرنى زمان سيعقبنى بحـــــذف وادغـــام

ويقصد بالحذف والإدغام ، الإزالة والإخفاء فى القبر وقد ذكر ذلـــك لتعلقه بالتصريف٠

يقول البطليوسى : شبه تصريف الزمان له ونقله إياه من حال إلـــــى حال بالتصريف المستعمل

ويسلو أبو العلاء المعرى ويسوق القصص ، كما ساقها أبو ذؤيـــب ، ولكن ليس بلغة أبى ذؤيب "والدهر لا يبقى على حدثانه ، ولكن بلغة أبـــى العلاء المعرى "ولا يشوى حساب الدهر ورد" ويشوى : يخطئ ، والـــورد بفتح الواو : الأسد٠ ***وهنا نصبح أمام جبال من الألفـــاظ وعـــرة لا تفلـــت لفظة واحدة من هذه الوعورة:-***

www.dar-alkotob.com دار الكتب

١٥-ولا يشوى حساب الدهر ورد له ورد من الدم كالمدام

١٦-يغنيه البعوض بكل غاب فريش بالجماجم واللمام

١٧-بدا فدعا الفراش بناظريه كما تدعوه موقدتا ظلام

١٨-بنارى قادحين قد استظلا إلى صرحين أو قد حى ندام

١٩-كأن اللحظ يصدر عن سهيل وآخر مثله ذاكى الضرام

٢٠-تطوف بأرضه الأسد العوادى طواف الجيش بالملك الهمام

وليست هذه هى القصة الوحيدة التى ساقها لهذا الأسد ***وإنما يتبعها بقصة أخرى وذلك فى قوله:-***

ولا مبق إذا يسقى صدوعا غوائر فى الدكـــادك والإكـــام

"لا مبق" معطوف على "ولا يشوى حساب الدهر ورد" أى ولا مبـــق و"مبق" هى الحية الذكر كثيرة السم ، صدوعا" أى تصدع الأرض وتشـقها، والغوائر : دواخل، والدكادك جمع دكداك وهى أرض مستوية فيها رمل.

والمعنى أنه لا يبقى على حدثان الدهر أسد ، ولا حية إذا مشت أبقت فى الأرض صدوعا وآثارا . ويسوق قصة هذه الحية الرهيبة ، وكيـــف أنها تبقى على حدثان الزمن ، ويستمر فى سوق القصص بهذه اللغة البالغة

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الصعوبة ، ***الموغلة فى التوعر والتبدى حتى يصل إلـــى البيـــت التاســـع والخمسين فيتحدث عن أمه فى خمسة أبيات يختم بها قصيدته وعندهـــا ترجع الألفاظ إلى السهولة والرقة :-***

٥٩- ولو أن النخيل شكير جســـمى ... ثناه حمل أنعمك الجســـام

٦٠-كفانى ريها من كـــل رى ... إلى أن كدت أحسب فى النعـــام

٦١-وكم لك من أب وسم الليـــالى ... على جبهاتها سمة اللئـــام

٦٢-مضى وتعرف الأعلام فيـــه ... غنى الوسم عن ألـــف ولام

٦٣-سقتك الغاديات فما جـــهام ... أطل على محلك بالجـــهام

٦٤-وقطر كالبحار فلست أرضـــى ... بقطر صاب من خلل الغمـــام[1]

على أن لأبى العلاء قصيدة أخرى يتفجع فيها على أمه وفقده لـــها ، وهى من بحر الطويل ومطلعها:-

خلو فؤادى بالمودة إخلال ... وإبلال جسمى فى طلابك إبلال[2]

---

(1) شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثانى صـــ ١٤٧٤

(2) شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثانى صـــ ١٦٨٥

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وتقع هذه القصيدة فى عشرة أبيات ، يقول بعد هذا البيت :-

٢-ولى حاجة عند المنية فتكها بروحى والأهواء مذ كن أهـــوال

٣-إذا مت لم أحفل أبالشام حفرة حوتنى أم ريم بريمان منـــهال[٣]

٤-على أن قلبى آنس أن يقال لى إلى آل هذا القبر يدفنـــك الآل

٥-دعا الله أما ليت أنى أمامها دعيت ولو أن الهواجر آصـــال

٦-مضت وكأنى مرضع وقد ارتقت بى السن حتى شكل فودى أشـــكال

٧-أرانى الكرى أنى أصبت بناجذ ألا إن أحلام الرقاد لضـــلال

٨-أجارحتى العظمى تشبه ساهيا يبين لها فى ساحة الفم أمثـــال

٩-وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتان برء للنفوس وإعـــلال

١٠-إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور فى التراب وأحـــوال

وهو يقول فى هذه الأبيات :-

خلو فؤادى من الوجد والهوى إخلال بالمودة ، والكاف "فى طلابـــك" خطاب لأمه، والمعنى إبلاء جسمى فى طلبها كالإبلال ، والشـــفاء عنـــدى لمحبتى هذا السقم واستعذابه، ولا يخفى ما فى البيت من جناس فى إبـــلاء"

[٣] ريم : قبر ، وريمان : اسم جبل ، منهال : من هلت التراب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وإيلال٠ والبيت الثانى متعلق بالأول ، هو يحس بالراحة فى السقم ، كـــأن له رغبة عند المنية أن تفتك به ، والأهواء مركب للأهوال ، تـــهلك مـــن يتعرض لها ويطلبها ، وواضح أيضا الجناس بين الأهواء والأهوال٠

وما احتفالى بالمكان الذى أموت فيه إذا مت ، يستوى عندى أن تكون حفرتى بالشام أم قبر بجبل "ريمان" منهال ترابه ، يتساقط ولا يتماسك وقـد كرر أبو العلاء هذا المعنى فى قوله:-

فلا يبك مكى لفقد حجونه بكل مكان مصـــــدع وحجـــون

والتجنيس واضح أيضا فى هذا البيت فـــى "ريـــم" ، و "ريمـــان"٠٠

والبيت الرابع مرتبط بالثالث ، يقول فيه : أننى وإن كنـــت لا أبـــالى حيث مت ولا فى أى موضع دفنت لتساوى بقاع الأرض وكـــون بعضـــها شبيها ببعض فإن لى أنسا واختيارا فى أن يدفننى أصحابى ويكون قـــبرى بين أهلى وأقاربى وبين "الآل" بمعنى الشخص و"الآل" بمعنى الأهل جنـــس تام، وفى البيت الخامس يسوق متألما خبر موت أمه ، لقد دعاه الله فلبـــت النداء ، فليتنى وقيتها بنفس وتقدمتها وكنت سابقا لها ، مهما كان حظى من الدنيا "ولو أن الهواجر آجال" فإنى لن آسف على ما يفوتنى من هذه الدنيـــا مهما حلت وطابت٠

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ثم يلتفت فى البيت السادس إلى أثر فقد أمه عليه ، فمع أنها قد مضت وهو فى سن الكهولة إلا أنه قد ارتد طفلا رضيعا.

ويشير فى البيت السابع إلى أنه قد رأى فى المنام أنـــه قـــد ســـقطت نواجذه وكان تأويل ذلك فقد أمه ، وهو دليل على أن أحلام الرقاد ضلال ، ليخلص فى البيت الثامن إلى توضيح هذا الضلال ، فكيف يمثل فقـــد الأم بسن لها فى الفم أمثال؟

وفى البيت التاسع والعاشر يوضـــح الصلـــة بيـــن النـــوم والمـــوت والافتراق،بين برء النفوس وإعلالها ، ثم يوضح أن نومه أو موتـــه هـــو الذى سيشفى نفسه لأنه سيلقى الأحبة ، بعد ما طوتهم فى التراب شـــهور وأحوال.

ابن سنان الخفاجى :-

يقول ابن سنان الخفاجى فى رثـــاء أمـــه:-

أبكيك لو نهضت بحقك أدمع ... وأقول لـــو أن النوائـــب تســـمع

لا يغبطن على البقاء مرزأ ... إن المـــودع إلفـــه لمـــــودع

قبحـــا ليومـــك فـــالنوائب بعـــده ... جلـــل وكـــــل زريـــــة لا تفجـــع

لـــو كـــان ينفعـــى الســـلو نبزتـــه ... أســـفا عليـــك فكيـــف إذ لا ينفـــع

عجبـــا لمـــن يبقـــى ذخـــائر مالـــه ... ويظـــل يحفظـــهن وهـــــو مضيـــع

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ولغـافل ويـرى بكـــل ثنيـــة ... ملقـى لـه بطـن الصفـائح مضجـع
يا قـــبر فيـك الصالحـات دفينـة ... أقمـا تضيـف بمـن أو تتصـــدع(١)
ويا أرضه إن ينكسف بـــك بـدره ... فما برحـــت فى الأرض تكســف أقمـار

ابن سناء الملك(٢) يرثى أمه:-

رثى ابن سناء الملك أمه فى قصيدة وصلت أبياتها إلى تسعة وستين .

ومطلع هذه القصيدة:-

صـح مـن دهرنـا وفـاء الحيـاء ... فليطل منكمـا بكـاء الوفـاء

والقصيدة من بحر الخفيف .

وقد بدأها الشاعر بمخاطبة عينه بأن تحل وكـاء البكـاء وأن تـهين الدموع سكبا وهطلا ، وتهجر النوم وتمنحه لهذا الصب الذى ينـادى مـن يعيد الكرى ، ثم يعلن سبب هذا البكاء ، ***فقد رماه الزمان بخطب ودهـاه بما صيره حزينا كئيبا يرى الغناء نواحا والنواح مثل الغناء:-***

(١) أنظر عصر الدول والإمارات صـ ٧٣٣ وله ديوان مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت ، وفوات الوفيات ٤٨٩/١ .

(٢) ابن سناء الملك: من شعراء مصر فى القرن السادس للهجرة ، ولد فى القاهرة سنة ٥٥٠ هـ يقول عنه د شوقى ضيف "لا نبالغ إذا قلنا إن هبة الله بن سناء الملك أكبر شاعر عرفته مصر فى القرن السادس للهجرة: انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى من أعظم شعراء مصر فى القرن السادس الهجرى ، وقد برع فى الرثاء، ورثى أباه وله ندب رائع فيه "تنهر دموعـه وتنسكب وهو يذهر تقواه ونسكه ذكرى محضة وما زال يندبه ويبكيه قائلا:-
دار المعارف ن الطبعة العاشرة صـ٤٩٤

www.dar-alkotob.com دار الكتب

صـح مـن دهرنـا وفـاء الحيـــاء فليطـل منكمـا بكـاء الوفـــاء
ولـيـن مـا عقدتمـاه مـن الصـــبر بـأن تحلـلا وكـــاء البكـــاء
وأهينـا الدمـوع سـكبا وهطـــلا وهبـا أنهـــن مثـــل الهبـــاء
وامنحـا النـوم كـل صـب ينـادى من يعير الكـــرى ولـو بـالكراء

وبعد ذلك يصور الشاعر حالته بعد أن دهته هذه الداهية ، فقد أنـلخت ركائب الهم على قلبه ، وقضى عليه بالنحيب طوال عمره ، ثم يتحدث عن هذه الأم ، فهى لم تزل تزيـــل البـــلاء وتدفعـــه عنـــه ، ***والتـــى بعـــض جودها وجوده:-***

أى عـــذر لـــد هرنـــا إذ دهـــــان بعصـــاب ألم فيـــه دهـــــانى
وأرانى البـــلاء قـــد حـــل منـــــه بـــالق لم تـــزل تزيـــل بلانـــــى
والق بعـــض جودهـــا لى وجـــودى والـــق مـــن حبائـــها حوبـــــائى

ويمزج المدح بالفخر بها وبنفسه:-

قـــد تيقنـــت مذغـــدت لى أصـــلا أنـــى مثمـــر فنـــون العـــلاء
يعذر الناس مـــن تكـــون لـــه أمـــا إذا ما إزدهـــى علـــى الآبـــاء
ويرون الصـــواب أن تنتســـب الأو لاد لا للرجـــال بـــل للنســـاء

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ويأتى بصورة مفتعلة فيها من المبالغة ما يجعله مدانا مـــن الناحيـة الشرعية ، فهو يصور كثرة حسناتها ، لدرجة أن كاتب اليميـــن أصابـه الكلل والملل وراح يغفل تسجيل بعض الحسنات من الإعياء والتعب .

أتعبـت كـاتب اليمـين فكـم أغ ... فـل إثباتـا مـن بالإعيـاء

ومن الصور المبالغ فيها أيضا تمنيها الموت رغبة فى الاختباء وهو تعليـل سخيف

كـم تمنـت قـرب المنيـة دهـرا ... رغبـة فى الخبـاء والاختبـاء
وقد وردت الكلمة العاميـة "ياما" ... بمعنى كثير ،وذلـك فى قولـه :
لهف نفسـي عليـك ياما بقلـبي ... منك يا طول حسرتى وعنـائى .

ويرى الشاعر أنه لا مبرر لتغيظه من الدهر ، **فالدهر مثلـه قـد أضـير بسبب وفاة والدته ، فقد أصبح قليل الضياء مما أصابه من فقدها :-**

إن غيظـى علـى الزمـان لجـهل ... هو مثلـى يصـاب بـالأرزاء
قد دهاه من فقدها مـا غـدا مـن ... ها قليل البـها قليـل الضيـاء

ويؤكد أن شعره قاصر عن رثاء هذه الأم ولو صاغه من الثريا ففى ضميره ما يقصر هذا الشعر عن إبرازه:-

أنت عندى أجل من كـــل تـــأبين ولـــو صغـــت بالثريـــا رثـــائى
فى ضميرى ما ليس يبرز شـــعرى لا ولو كنـــت أشـــعر الشـــعراء

ويتجه إلى مخاطبة القبر ، وقد ضم السنى والسناء والبدر داعيا إيـــاه أن يترفق بها ، فقد حوى من الطهر ما جعله يحاكى مسجد قباء ، ***ولذا فله حجه وهجرته ولمن فيه الثناء والمدح والدعاء:-***

فـــاحتفظ أيـــها الضريـــح بيـــــدر صرت من أجله كمثل الســـماء
وترفـــق بـــه فـــــإنك تســـدى منـــــه جمـــة إلى العليـــــاء
أنت عندى لما حويت مـــن الطهـــ ريحـــاكيك مســـجد بقبـــاء
لك حجـــى وهجرتى ولمن فيـــ ك ثنائى ومدحتى ودعائـــى

ثم يتجه إلى أمه طالبا منها أن تشفع له يوم القيامة لئـــلا يعـــد فـــى الأشقياء، ***فالجنة تحت أقدامها:-***

أذكريـــنى يـــوم القيامـــة يـــــا أم مـــ لئـــلا أعـــد فى الأشـــقياء
واشـــفعى لى فجنـــتى تحـــت أقـــدا ملك من غير شـــــبهة وامـــتراء

وأخيرا يختم قصيدته بالدعاء أن يعجل الله له اللقاء بأمـــه فالحيـــاة مثل الداء والموت هو الدواء:-

عجـــل الله راحـــتى مـــن حيـــــاتى إنما فى الزمـــان أعظـــم دائـــى
وإذا ما الحيـــاة كانـــت كمثـــل الدا ء كان الممات مثل الدواء(١)

(١) ديوان ابن سناء الملك صـــ ٦

الرثاء وتصنع ابن سناء الملك:-

كان ابن سناء الملك يميل إلى السهولة فى شعره ، مع تحليته بـــألوان التصنيع[٢]وتلحظ هنا فى قصيدته إصراره على الجناس والطباق فى كـــل بيت تقريبا، فلا يخلو بيت من محسن بديعى.

فى البيت الأول جناس بين وفاة ، وفاء وفى البيـــت الثـــانى طبـــاق بيـــن "عقدتماه" ، "وتحللا" وفى الثالث جناس بين"هبا" ، "وهباء"، وفـــى الرابـــع جناس بين"الكرى" ، "والكراء"، وفـــى الخـــامس جنـــاس بيـــن"خطـــب" ، "خطباء"،وفى السادس جناس بين "أعزاه" ، "عزائى"، وفى الســـابع طبـــاق بين"غناء" ، "نواح"، وفى التاسع جناس بين"نحيى" ، "نحبـــه"، ونلاحـــظ أن البيت الثامن قد خلا من المحسن البديعى ، وقد علق شارح الديوان علـــى هذا البيت أنه غير موجود فى النسخ الأخرى ، فى البيت ١٢ جناس بيـــن فناءى و "ثنائى"، وفى البيت ١٤ جناس بين سماء ودماء، وفى البيـــت ١٥ جناس بين البلوى والنعماء، وفى البيت ١٦ جناس بين دهانى ودهائى.

وهكذا إلى نهاية القصيدة كل بيت لا يخلو من محســـن مـــن هـــذه المحسنات ومن هذه المحسنات ما جاء طبيعيا دون تصنع مثل قوله:-

والق بعـــض جودهـــا لى وجـــودى ... والق مـــن حبائـــها حوبـــائى
قد تيقنت مذغدت لى أصـــــــلا ... أننى مثمر فنون العـــــــلاء

---

[٢] الفن ومذاهبه فى الشعر العربى صـــ ٤٩٦ ، الطبعة العاشرة

ومنها المتكلف وهو كثير ومثاله:-

ولبين ما عقدتماه من الصبر بأن تحللا وكاء البكاء

فقد اضطر من أجل الطباق بين عقدتماه وتحللا ، أن يجعل للصبر عقـــدا ورباطا ، وأن يجعل للبكاء وكاء.

وكذلك فى قوله:-

وأنا تحت ركـــائب الهـــم فى قلـــبى ولم تحتشـــم لطـــول الثـــــواء
ثم آلـــــت ألا تفـــــارق ربعـــــى وفـــاءى إلا عقيـــب فـــــائى

فقد أراد أن يطابق بين فناء الدار والفناء بمعنى الانتهاء ، فزاد بعـــد الربع كلمة *"وفناءى"*

وقوله:-

وأرادت حجب الثرى ليت شعرى من دعا للثرى بهذا الثراء

فقد أراد أن يطابق بين الثرى والثراء ، ***مع أنه لو قال*** : " من دعـــا للثرى بهذا الدعاء. أو الهناء لكان أجدى لأنه ليس هنا ثمة ثراء وإنما هنـــا مكانة ورفعة وطيب ونور. ولكنه القصد المتصنع إلى الطباق".

وقد أثر ولوعه بمصطلحات العلوم وتضخيمها فى شعره على هـــذه القصيدة ، وهو يقول:-

فهو فى الميتين يحسب حقا ومجازا يعد فى الأحياء

كشاجم[1]

وأبو الفتح كشاجم من شعراء الطبيعة ، وقد رثى أمه بتلك الأبيـــات التى يصور فيها رفضه للراحة وللعيش الظليل بعد فقد أمه،وأنـــه ســيقابل ***إرضاعها له فى الصغر بإرضاع قبرها من دمعه:-***

أبعد مصـــاب الأم ألـــف مضجعـا وآوى إلى حفض من العيش أو ظـل؟
سترضع عينى قبرها من دموعها بما كلفته من رضاعى ومن حملى

ويرسم صورة ظريفة فيجعل موتها قبله فيه سلامة من الثكل وإحساسها به ، ويصور ذلك فيقول:-

فأقســم لـو أبصرتـــنى عنـــد موقـــا وعينى تسح الدمع سجلا على ســـجل
رثيـــت لعضـــل يـــأخذ المـــوت جفنـــه وأعجبت من فرع ينوح علـــى أصـــل
يـــهون مـــن وجـــد وليـــس بهـــين سلامتها بالموت مـــن جرعـــة الثكـــل
وكـــان عليـــها أن أقـــدم قبلـــها أشـــد وأدهـــى مـــن تقدمـــها قبلـــى
فقد فديت من غمها بى بحسرتى عليها وفيما بين ذلك ما يسلـــى(٢)

---

(١) أبو الفتح محمود بن الحسين السندى ، المعروف بكشاجم ، كان يعمل منجما ورئيسا للطباخين فى بلاط سيف الدولة ، قيل أنه هو الذى نحت هذا اللقب دلالة على نواحى فضله ، فالكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب، والجيم من جواد ، والميم من منجم. توفى كشاجم سنة ٣٥٠ هـــ وقيل سنة ٣٦٠ هـــ. ينظر فى ترجمته :شذرات الذهب ، لابن العماد ٣٨:٣ ، وله ديوان حققه د/النبوى عبد الواحد شعلان ، مطبعة الخانجى.

(٢) ديوان كشاجم : تحقيق د/ النبوى عبد الواحد شعلان مطبعة الخانجى طبعة أولى

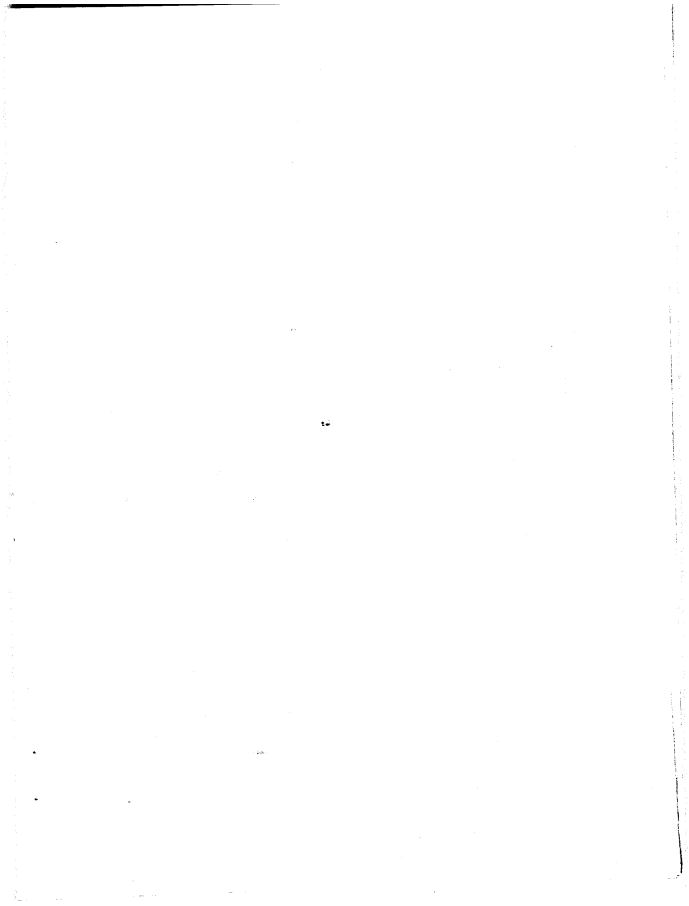

الفصل الأول
دراسة موضوعية

الدراسة الموضوعية

حفلت قصيدة الرثاء في أدبنا العربي الحديث بفيض من العاطفة، مما جعل الموضوعات تتشقق وتتفرع ، وقد سلك كل شاعر في التعبـــير عـــن عاطفته مسالك شتى ودروب عديدة ، ربما اتفقت هـــــذه الـــدروب وتلـــك المسالك عند بعض الشعراء ، وربما تفرد أحدهم بمسالك أخرى ٠

ومن هذه الموضوعات التي اشترك فيها الشعراء :-

المدح :-

من الطبيعي أن يلتفت الشاعر إلي أمه وهو يرثيها، فيتحـــــدث عـــن أفضالها وصفاتها ويعدد هذه الصفات ، فالمدح في قصيدة الرثـــاء تعـــداد لخصال المرثية مع فارق بسيط ، وهذا الفارق مع بســـــاطته مـــهم جـــدا، فالشاعر لا يمدح تلك الأم ويعدد صفاتها و محاسنها ليعرف الناس تلك الأم بعينها، ويعرفوا فضلها ودورها، كتعداد محاسن زعيم أو عظيـــم ليســـجل للناس فضله، في رثاء الأم لا يقصد الشاعر ذلك ، وإنما هو يبكى في أمـــه هذه الصفات ، فهو لم يفقد جسدا، وانما فقد تلك المعاني السامية المتجســـدة في هذه الأم ، مع اعتراف البحث بأن بعض الشعراء قد عـــددوا محاســـن الأم بقصد الافتخار وتعريف الناس بقدرها وفضلها٠

فمن هذا اللون الذي يفتخر به الشاعر وهو يمدح تلك الأم قصيـــدة شوقي في رثاء أمه :-

لئن فات ما أملته من مواكب فدونك هذا الحشد والموكب الضخما
رثيت به ذات التقى ونظمته لعنصره الأذكى وجوهره الأسمى
نمتك مناجيب العلا ونميتها فلم تلحقي بنتا ولم تسبقي أما [١]

والشاعر هنا يمدح تلك الأم بأرومتها وعنصرها الطيـــب وبـــهؤلاء الأجداد العظام الذين هم بالضرورة أجداده . وعنصر الفخـــر بـــالأصول والجدود عنـــد شـــوقي تكـــرر فـــي رثـــاء الشـــاعر لجدتـــه أيضـــا ، ***وذلك عندما قال :-***

[١] ديوان أحمد شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٦ ،توثيق وتبويب د /أحمد الحوفي دار نهضة مصر

صلاة الله يا تمراز تجزى ثراك عن التلاوة والصلاة
بررت المؤمنات فقال كل لعلك أنت أم المؤمنات
وكانت في الفضائل باقيات وأنت اليوم كل الباقيات
تبناك الملوك وكنت منهم بمنزلة البنين أو البنات
يظلون المناقب منك شتى ويؤون التقى والصالحات
وما ملكوك في سوق ولكن لدى ظل القنا والمرهفات
عننت لهم بمورة بنت عشر وسيف الموت في هام الكماة
فكنت لهم وللرحمن صيدا وواسطة لعقد المسلمات
تبعت محمدا من بعد عيسى لخيرك في سنيك الأوليات [٢]

ونلاحظ هنا أن شوقي يفتخر بهذه الجدة، وهو معنى ببيان أنـــها لـــم تؤسر عن رق، وإنما وقعت أسيرة فـــي الحـــرب، فـــهي ســـليلة رجـــال شجعان، وأن أسرها كان نعمة لدخولها فـــي الإســـلام، وشـــوقي وهـــو يعارض المتنبي ويتبع خطاه في رثاء جدته، راح يقلده في الفخر بجدتـــه، وهو يتحدث عن نفسه وعن الجدة ، ففخر بهما وبأصولهما وجدودهمـــا ، وفخر بنفسه بعد ذلك. فإذا قال المتنبي عن جدته.

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أما

[٢] ديوان أحمد شوقي جـــ٢ صـــ٤٠٠

قلده شوقي في رثاء جدته وذلك عندما يقول :-

ولم لم تظهري في العرب إلا بأحمد كنت خير الوالدات

**** المدح بالتقي والصلاح :-***

ومع عنصر الفخر بالأصول والأجداد في رثاء شوقي لجدتـــه وأمـــه فأنه لم يهمل عنصر المدح بالتقوى والصلاح والصلاة ، فصلاة الله تجزيها عن صلاتها وتلاوتها للقرأن وعن هذا العمر المديـــد التـــي قضتـــه فـــي الإحسان والبر .

وكذلك نجد خليل مطران في رثاء جدته لأمه ، تلك القصيدة التي عنـون لها بقوله (الجدة هي سيدة فاضلة حسيبة نسبية ، بلغت المائة من عمرهـــا وكانت إلى أيامها الأخيرة تكسو مما تحوكه وتوشـــيه حفداءهـــا الكـــثرة) ***والتي يقول فيها:-***

قد كنت أما وزوجا في الناس خير المثال

وما عرفت بغير التقوى وحسن الخلال

لم ينقطع لك جهد في صالح الأعمال

في كل يوم تجد دين آية من نوال

وآنا ببيض أياد تسدى وآنا بمال

وإبرة لك فيها آيات سحر حلال

صرفتها في ضروب **من برك المتوالي** [١]

والشاعر يشير إلى خلال هذه الجدة الطيبة التـــي عرفـــت بـــالتقوى وحسن الصفات وواصلت جهدها في الأعمال الصالحة ، ومديد المســـاعدة بالمال أحيانا ، وبأعمال الإبرة التي يرغب فيها والتي صرفتها في ضروب من البر وكساء النساء والأطفال . وقد نال هو نفسه من هذه الأثواب مـــا ***جعله في أبهى زينة:-***

كم حكت سترا ودفئا **لنسوة وعيال**

وصغت في سعة الوقت زينة للأل

لقد أصبت نصيبا من ذلك الأفضال

ثوب كأنك فيه نسجت لمح اللألى

أعاد لي من فوات نضارتي واختيالي

تالله إن أنس لا انس طيب تلك الأفعال [٢]

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنه راح يذكر لها فضلها في صياغـــة القصص وحكايتها وهى تصوغ الحقيقة موشاة بالخيال الرائع :-

ولا أحاديث أوعت محاسن الأقوال

(١) ديوان الخليل جـــ٢ صـــ٥٤٤

(٢) ديوان الخليل جـــ٢صـــ٥٥٥

في كل وقت لها موقع وفى كل حال
زانت بديع حالها مضارب الأمثال
ورائعات الأقاصيص عن عصور خوال
مما الحقيقة فيه تزهى بثوب خيال (١)

وقد نجد مدحا عاما لا يقف عند صفة من الصفات بعينها ، وذلـــك كما في قصيدة خليل مطران في رثاء أمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظائم النعم (٢)

كذلك في قول حسن عبد الله القرشي :-

كنا بظلك نتقى لفح الأعاصر والكروب
ونرد عادية الزما نبدرعك الواقي المهيب (١)

من الشعراء الذين تحدث عن فضائل الأم عامة ، وعن كل أم فـــي شعره ، ومن هؤلاء الشعراء إبراهيم عبد الفتاح(٢) وذلـــك فـــي نهايـــة قصيدته :-

الأم أعظم لفظة رددتها جمعت معان في الحياة سواميا

---

(١) ديوان الخليل جـــ٢ صـــ٥٥٥

(٢) ديوان الخليل جـــ٣ صـــ٢٤٧

(١) ديوان حسن عبد الله القرشي المجلد الثاني صـــ٢٤٣

الأم أول من نطقت لها اسمها ... وأبوك مهما جل كان التاليا (٢)

لفظ نما معناه في أذهاننا ... بنموها فغدا عظيما ساميا

لا يسأم الإنسان عن ترداده ... طفلا صغيرا أو عجوزا واهيا

مهما كبرت فأنت طفل عندها ... تولى حياتك حبها المتواليا

ما فوق حب الأم حب يرتجي ... فاحفظ لها الحب العظيم الوافيا

لا خير في الدنيا إذا لم ترعها ... أم تحيل العيش فيها هانيا

الأم تمسح بالحنان يمينها ... أحزان من يشكو الزمان العاتيا

هي رحمة الله الرحيم بخلقه ... وضياء نجم لم يزل لك هاديا

الأم أيكه نعمة تهدى لنا ... أغصانها ثمرا وظلا ضافيا

الأم روح للوجود لطيفة ... والجسم لولا الروح يمسي فانيا

الأم قلب الكون ينبض دائما ... ليفيده دمه الجديد القانيا

---

(٢) ديوان ومضات فكر ونبضات قلب .ديوان جديد للشاعر إبراهيم عبد الفتاح طبعة أول سنة١٩٩٠م دار الصفا للطباعة والنشر .صـــ١١٤ .والشاعر إبراهيم عبد الفتاح من مواليد أغسطس سنة ١٩٠٩م في دبرب نجم شرقية ، وهو خريج دار العلوم العليا سنه ١٩٣٥م ،اشتغل مدرسا وناظرا وموجها للغة العربية بالإعدادي والثانوي وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٦٩م .طبع له سنة ١٩٤٧م ديوان " من وحي الدعوة الإسلامية ، وله ديوان " ومضات فكر ونبضات قلب "

للأم أجنحة نواعم ريشها حضنتك طفلا صاحيا أو غافيا

وجناح رحمتها احتواك ببره وحنا عليك قوادما وخوافيا

الأم مثل الأنبياء رسالة وكجندهم في الصالحات تفانيا

الأم نبراس يضئ شعاعه سبل الحياة فليس يترك داجيا

الأم عين لا تنام مع الدجى إن بات ليلك ساهرا أو شاكيا

ترعاك طفلا في الحياة وناشئا ودعاؤها يرعاك كهلا فانيا

في الملعب المحروس رفرف حبها ورعاك أياما بها ولياليا

هي من سماء الحب أكرم مزنة سقت الثرى فنما وطاب مجانيا

هي كالربيع كسا الحياه جمالها وأجل منه على الحياه أماديا

ما من نبوغ يلفت الدنيا له إلا إليها ينتمي متباهيا

إن تلتمس سببا لرفعة أمة تبصر مقام الأم فيها عاليا [1]

---

[1] ومضات فكر ونبضات قلب :صـــ١١٦

فهذه المقطوعة في الأم ، وان كانت تشكل في نفسها لوحة رائعـــة ، إلا أنها مقحمة على قصيدة الرثاء ، ويبدو أن الشاعر نظمها بعد أن نظـــم قصيدة الرثاء وألحقها بها.

***حنان الأم وعطفها على ولدها :-**

وهو عنصر من العناصر التي طغت على قصيدة الرثاء بالنسبة للأم.

ومن الملاحظ أن الشاعر عندما يرثى أمه يتحدث عن فقده لحنانـــها وعطفها ويرها ، والدعاء والتطبيب والتعويذ. وهذا إن دل فإنما يدل علـــى عظيم عطاء الأم.

ومن النماذج الدالة على ذلك رثاء الشاعر إبراهيم عبد الفتاح لأمـــــه والتي يقول فيها مقدما لقصيدته (عندما صعدت روحها الطاهرة إلى ربـــها سقط قلبي من أضلعي ورأيتني طفلا في حاجة إلى حنان أمه) [1]

وهو يبدأ القصيدة مشعرا لنا أنه شيّع حنان أمه في الثرى :-

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا ... قد كنت يوما من حياتي قاسيا
شيعت فيك حنان أمي في الثرى ... ووضعت في الغبراء كنزا غاليا

(١) المرجع السابق صـــ١١٥

والقصيدة كلها لحن نازف معبر عن الفقد لحنـــان الأم وبرهـــا وعطفـــها ورأيـــها ومؤاساتها :-

أنا لست أنسى منك برا حانيا أسو الجراح به ولفظا شافيا

أنا لست أنسى منك رأيا صائبا ألفى له ما كنت قبل رائيا

قد كنت آسي بالجراح فأن أنت أمي رأيت بها الطبيب الأسيا

يا أم كنت مثابة لسعادتي وسناك كم أجلى ظلام شقائيا

مهما علت سني أراني دائما طفلا بجنبك ضاحكا أم باكيا

وحتى عندما يذهب الشاعر زائرا لقبر هذه الأم فإنه يأمل أن يجد هنـــاك الحنان والدعة والسكينة التي كان يجدها في حياة أمه ، وهو واثق أن برّها لا يزول بموتها ،وأن حنانها لا ينقضي بسكونها القبر :-

كم جئت مثواك الأخير محدثا روحا أحب حديثها ومناجيا

استلهم الرشد الذي عودتني وأبل في صدري فؤادا صاديا

أيحس قلبك بارتياح عندما آتى ضريحك مستمدا داعيا

أيفيض قلبك بالحنان كعهدنا بجناحه أم صار قلبا قاسيا

حاشا لبرك أن يقل على المدى حاشا لقلبك أن يرى متجافيا

إني أكاد أحس نبض فؤادها في قبرها إن جئت أشكو حاليا [1]

---

[1] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

إن الشاعر يحن إلى حديثها ومناجاتها ، فيروح إلى قبرهـــا يســـتلهم الرشد ، ويبل صدى القلب . فهل تحس هي به ؟ كما يحس بـــــها ؟ هـــل تحس بارتياح عندما يأتى إلى ضريحها ؟ هل يفيض قلبها بالحنان كالعـــهد به دائما ؟ حاشا لهذا البر المتدفق أن يقل ، ولـــــهذا المعيـــن أن ينضـــب بمرور الأيام ، وحاشا لهذا القلب الحاني أن يرى متجافيا . إنه يحس بنبض فؤادها في قبرها كلما جاء يشكو حاله.

ويصور فريد عين شوكه [٩] فقده لهذا الحنان والدعاء ، والســـؤال عن الطعام والشراب ، والوداع في الرحيل واللقاء في الإياب ، وقد تحول هذا كله إلى ذكريات بعيدة فقدها بموت الأم :-

أين منى حنانها يسعد الروح ... وينفى عن خاطري كل هـــم ؟

أين منى دعاؤها بركـــــــات ... تتوالى من السماء وتهمـــــــي ؟

أين منى سؤالها عن طعامـــي ... وشرابي وقيامي ونومي ؟

أين منى حنانها للقائي ... إن تغيبت ساعة دون علمي ؟

أين منى وداعها في رحيلي ... بالأماني التي تجدد عزمـــي ؟

أين منى لقاؤها في إيابي ... بالتهاليل حين أهتف باسمـــي؟

---

[٩] الرسالة صـــ١٨٧ الســـنـــة ١٥ المجلد الثاني

وهكذا يسوق الشاعر كل هذا العطاء اللامتناهى في حلـــه وترحالـــه ويقظته ونومه وطعامه وشرابه في صور متلاحقـــة توحـــي بفيـــض الأم وعظيم حنانها وحدبها على ولدها.

ويصور الشاعر سهر الأم على تمريضه والعناية به،وهـــى تســـكب الدموع ألما وحزنا عليه ، فإذا ما استيقظ حبست الأم دموعـــها وقابلتـــه بوجه بفيـــض بشـــرا .فهى تتـــألم مـــن داخلـــها ولا تريـــد أن تشـــعره بهذا الألم :-

أين منى صدق الفداء إذا ما ... مسني في الحياة أيسر سقم

تسهر الليل وهى حولي ولهى ... تذرف الدمع في خفاء وكتم

فإذا ما انتبهت فهي تلاقيني ... بوجه مستبشر غير جهم

وتروى جوانحي بأماني ... ى عذاب تنفى ظنونى ووهمى

وتصوم النهار عن كل زاد ... غير ما يمسك الرماء ويحمى

ومناها لو أنها تفتديني ... بالذى يبتغى الفداء وترمى

إنها لا تطببه ولا تمرضه فقط، إنها لشدة إشفاقها عليه تتمنـــى لـــو أفقدته بروحها.

ويصور محمد الهراوى تلك اللهفة من الأم علـــى ابنـــها والحـــرص عليه، فهو إذا غاب باتت تتلهف على أخباره ، وســـهرت تســـائل النجـــم

الساري في لهفة وحيرة عن ابنها ، وهى تزود عنه الأحـــداث ، وتجـود بروحها إذا افتقر ، وإن مسه سقم لازمته حتى يذهب عنه هـــذا الســقم ، وهى تدارى سقمها حتى لا تحزن ولدها ، ولو استطاعت إخفاء موتها عنـه لفعلت ذلك . ويطلق الشاعر زفرة حزن وأسى ورحمة لهؤلاء الذين فقـدوا أمهم ، ***فلا حنان بعد حنان الأم*** :-

فقدت التي كانت إذا شط بى النوى تسائل عنى في الدجى ساري النجم

وإن ترمني الأقدار منها بحادث تلقفه عنى على الروح والجسم

وإن تربت كفى تجود بروحها مخافة ما لم أحتمله-من العدم

وإن مسني سقم ثوت عند مرقدي لزاما فلم تبرحه إلا مع السقم

على أنها والسقم يبرى عظامها تحاول أن تخفيه عنى بالكتم

ولو أنها اسطاعت لأخفت حمامها وقد حم إشفاقا على من الضيم

فيا رحمتا للفاقدى أمهاتهم من الناس مثلى أو من الطير والبهم

فإن الحنان الحق في الأم وحدها وغير حنان الأم ضرب من الوهم [1]

وترجع الشاعرة وفاء وجدي بالذاكرة إلى الوراء، لقد رحلـــت الأم، فكأن شيئا ما كان ، وكأنها ما كانت يوما ما تعشش على أفراخها، وكأنـــها

---

[1] الرسالة : السنة الثالثة ، العدد ١٢٨سنه ١٩٣٥ صـــ٢٠٢٧ "واماه"

ما كانت دفئا في برد الشتاء ، ومنحة من الله ونفحة طيب علويـــــة ، لقـد فقدوا بفقدها الرحمة والحب .

ورحلت كأنك ما كنت لنـــــــــــــا
عشا للأفراخ المهجـــــــــــــورة
وكأنك مـــــــــا كنت لنـــــــــا
دفئا يتسلل عبـــــــر لياليا المقـــرورة
ورحلت كصبح بدده صبح مغتـــــــر
يا وشوشة العصفور على صدر الفجر
يـــــا نفحة طيب علويـــــــــة
يا منحة من أعطانا فيك الرحمة والحب
وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب (٢)

* حكمة الأم :-

كثير من الأمهات غير متعلمات ، ومع ذلك فهى تتصرف بوحـــى مـــن الإلهـــام وضرب من فطرة الأمومة الأتية ، وقد صور ذلك الإلهام وتلك الحكمـــة كثيـــر مـــن *الشعراء* :-

من غير علم تنطقين بحكمـــة ... كالوحى كالإلهام يشرق هاديـــا
للأم الهام عجيب، كاشـــــف ... للغيب يطلع الأمور كما هيـــا
إلهامها وحى إلاله لروحهـــا ... تلقاه فى الظلمات يهدى اساريا
يا من يفاخر بالعلوم وفضلها ... ويرى لها النور المبين الزاهيـــا

(٢) ديوان : الرؤية فوق الجرح ،وفاء وجدي صـــ٣٣ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٨٨ م

العلم ليس من المدارس وحدها خذ من حنان الأم علما صافيا
علم بلا قلم يخط وحكمـــــة خشع الزمان لها وأنصت واعيا [١]

يالها من لوحة رائعة رسمها هذا الشاعر لتلك الأم التي تنطق بلا علـــم إلا هـــذا الإلهام الذي يشرق بالحكمة ، وهو إلهام عجيب كاشف للغيب ، ولا عجب في ذلـــك فهذا الإلهام بمثابة الوحي من الله سبحانه وتعالى. ويضع علم هـــذه الأم بجـانب علـــم المدارس التي يفاخر الناس بها ، هو علم بلا قلم وبلا تعلم ومع ذلك كم خشع الزمـــان وأنصت ووعى لهذا الإلهام من تلك الأم .

ويصور محمد الهراوى "هذه الأمية" التي لا تغضي من قدرها ولكنها ترفعها فـوق ذوى العلم :-

وأمية كانت ولكن رأيهـــا لـــدى معضلات الأمر فوق ذوى العلم [٢]

● مرض الأم :-

لكل قصيدة رثاء ظروفها الخاصة ، وإذا كانت الأم قد تعرضت قبل موتها لمـــرض عانت منه وقاست ، فإن القصيدة تحمل هذه المعاناة وتصورها، *وقد مرضت أم عائشـــة التيمورية مرضا شديدا صورته الشاعرة وهى تبكى أمها وهى تسوق ذلك في ألم وتحســر على ما أصاب تلك الأم:*

قد خانها الدهر الملـــم فأصبحت لكؤوس أسقام الضنى تتوجع
ذاقت مرير السقم من عهد الصبا حتى قضت أيامها تتوجـــع

(١) الرسالة صـــ٢٠٢٧ من السنه الثالثة سنة ١٩٣٥م المجلد الثانى العدد
(٢) وأماه : لمحمد الهراوى الرسالة :صـــ٢٠٢٧ السنة الثالثة المجلد الثاني عدد ١٢٨

رحلت وقد أفنى النزيف دماءهـا والقلب فى حسراته يتصدع
كم من طبيب لم يكل وطالمـــا داوى ولكن داؤها يتفـــرع
كم ليلة باتت تساهر نجمـــه وتئن مما قد حوته الأضلـع
حتى أتى أمر الإله لها ادخلـــى لحدا وأمر الله لا يترجـــع [1]

ونلاحظ أن الشاعرة قد عكست ما تعانيه الأم وما تتجرعه مـــن الأم بسبب مرضها ، ولكنها لم تصور لنا أثر هذا المرض وهذا التوجع فى نفس الشاعرة.

ويصور الهراوى سقام أمه ومرضها ومعاناتها ومع ذلك فهى تكتم الألم حتى لا يراها ابنها فيتعذب لعذابها ويتألم لألامها ، وهذه الأم لو استطاعت أن تخفى موتها عن ابنها لفعلت ذلك :-

على أنها والسقم يبدى عظامهـا تحاول أن تخفيه عنى بالكتم
ولو أنها استطاعت لأخفت حمامها وقد حم إشفاقا على من الضيم [2]

● *شكوى الزمان :-*

تقول عائشة التيمورية :-

يا منهل التشتيت حسبك ما جرى فعيوننا قد أقسمت لا تهجع
ما بال هذا الدهر يفجع بالأسـى ألبابنا ولكم بحزن يفجـع [1]

---

[1] حلية الطراز صـ ٣٠

(٢) الرسالة صـ ٢٠٢٧ من السنه الثالثة سنة ١٩٣٥م المجلد الثانى العدد

[1] حلية الطراز صـ ٣٠

والشاعرة تبدأ قصيدتها بالتململ من الزمان وأفعاله ، هذا الدهر الـــذى يفجـع بالأسى ، ولذا فهى تطلب من الدهر أن يكف عن التشتيت ، وكفى ما جرى. *وكذلـك فعل الشاعر أحمد شوقى عندما بدأ قصيدته بشكوى الزمان إلى رب الزمان :*

إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما ... أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى

ويصارع الزمان و يجالده بقوله :-

زجرت تصاريف الزمان فما يقع ... لى اليوم منها كان بالأمس لى وهما
وقدرت للنعمان يوما وضده ... فما اغترت البؤسى ولا غرت النعمى
شربت الأسى مصروفة لو تعرضت ... بأنفاسها بالغم لم يستفق غمـــا
فأترع وناول يا زمان فإنما ... نديمك سقراط الذى ابتلع السمـــا
قتلتك حتى ما أبالى أدرت لى ... بكأسك نجما أم أدرت بها رجمـــا

ومع أن شوقى هنا يفتخر بمجالدته للزمان وأنه لم يعد يأبه به بعد أن عود نفسه على تحدثانه ، فإنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما فعل الزمان به ، ويجأر بالشكوى من شربة الأسى من هذا الزمان ٠

وهو يعزف هذا اللحن الشاكى من الزمان فى رثاء جدته ، مصورا مهد المرء فى أيدى الرواقى بنعش المرء بين النائحات ، والوليد والمعمر سواء فى أذى الزمان *فالدنيا قتال وهم مقاصد لهذا الزمان الذى يرميهم بنوائبه :-*

ومهد المرء في أيدى الرواقي ... كنعش المرء بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكـــاء ... فهل يخلو المعمر من أذاة ؟
هى الدنيا قتال نحن فيـــــه ... مقاصد للحسام وللقنـــــاة
وكل الناس مدفوع إليـــــه ... كما دفع الجبان إلى الثبـــات
نروع ما نروع ثم نرمـــــى ... بسهم من يد المقدور آتـــى

*ويتمنى الهراوى لو كان الزمان قد توقف به عند أيام الطفولة ، **فخطاه تقودهم إلى النهاية وإلى القطيعة والانصرام** :-*

ويا ليت لم يقطع بنا الدهر شوطه فإن خطاه للقطيعة والصرم

وهذا الزمان تبدى فى صورة ليل مريب تلظى بالرزايا والنـــدوب، فحطـــم الأمال وحولها إلى أشباح :-

أنت الغد المنشود ها قد عاد كالأمس الكئيب
وتراءت الأمال اشـــ باحا ليل مريـــــــب
ليل تلظى بالشجـــو ن وبالرزايا والنـــدوب

والشاعر البردونى يصور ذاك الزمان الذى خلفته أمه وودعته وهو زمـــان ممتلـــئ بالجور والغى والخراب والسيف والقنبلة والحرب ولمع الحـــراب ، زمـــان هـــو القيـــد والسوط والظلم :-

تركتنى للشقا وحدى هاهنا واستراحت وحدها بين التراب
حيث لاجور ولا بغـــى ولا ذرة تنبى وتنبى بالخـــــراب
حيث لا سيف ولا قنبلـــــة حيث لا حرب ولا لمع حـــراب
حيث لا قيد ولا ســـــوط ولا ظالم يطغى ومظلوم يحابى [1]

**** تمنـى الفداء:-***

وتمنى الابن فداء الأم من الصور الشائعة فى قصيدة الرثاء. فعائشة التيمورية تتمنى أن تودع روحها مع وداع الأحبة ، وتتمنى أن تفديهم

[1] ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول صـــ١٣٨

بروحها ولكن إرادة المولى نافذة ، وهى عاجزة لا تدرى ماذا تصنع أمام إرادة الله:-

ذهب الأحبة واستقل ركـــابهم ... ياليت روحـــى ودعـــت إذ ودعـــوا
ياليتهم طلبـــوا الفـــداء فـــهذه ... روحى ولكن ليـــت ليســـت تنفـــع
وإرادة المـــولى تعـــالى شـــأنه ... حتمت لنا هـــذا فمـــاذا نصنـــع[٢]

ويؤكد هذا المعنى أيضا الشاعر حسن القرشى ، فهو يؤكـــد أنـــه يسخو بالجوانح والقلوب ويبذل روحه يتقى بها بطش الردى:-

لو تفتديـــن ســـخا الفـــدا ... ء مـــن الجوانـــح والقلـــوب
وبذلت روحى أتقـــــى ... بطش الردى عند الوثوب[٣]

على أن هناك من الشعراء من تمنى أن يموت قبل هذا اليوم ، وأن يكون مكان أمه فى القبر:-

لا أطيق الحياة بعد نواها آه ، ... يا ليت يومها كان يومى[١]

وشاعرة أخرى تصور الموت وقد تسلل فى وضح النهار ، وهى ما درت أن هذا الزائر يأتى فى وضح النهار ، ولو درت ذلك لسدت بقلبها كل ثقوب النور ، ولتشبثت بالظلام حتى لا يأتى النهار ومعه الموت:-

---

(١) حلية الطراز صـــ ٣٠
(٢) ديوان حسن عبد الله القرشى المجلد الثانى صـــ ٢٤٣
(٣) الرسالة : السنة ١٥ المجلد الثانى عدد ٧٤٧ صـــ ١٨٧

لكن ما عن لنا أن يأتى زائرك المكروه
يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر
لو أدرى أن الظهر يخون
لسددت بقلبى كل ثقوب النور
لتشبثت بساعات الليل الظلماء

بل إن الشاعرة لترسم صورة أخرى للفداء وهى مصاحبة الأم فى رحلتها ، فلو أنها وهى تعانقها كانت تدرى أن هذا هو عناق الوداع، إذن لصهرت ضلوعها بين ذراعى أمها ، وعششت بصدرها ، ومضت معها إلى حيث تكون:-

لو أدرى أن عناقك لى فى تلك الليلة
كان عناق وداع
لصهرت ضلوعى بين ذراعين وعششت بصدرك
ومضيت إلى حيث تكونين أكون ..
لو أدرى [٢]

وفى قصيدة الشاعر عبد الله البردونى ، وقد كان مكفوف البصر وكانت أمه هى التى تطعمه وتسقيه ، وتأخذ بيده فى الطريق، جاءت هذه الصور ميثوته فى قصيدة الرثاء

كيف آنساك وذكراك على سفر أيامى كتاب فى كتـــاب
إن ذكراك ورائى وعلـــى وجهتى حيث مجيئى وذهابـــى

[٢] ديوان : الرؤية من فوق الجرح : شعر وفاء وجدى صـــ٣٢

كم تذكرت يديك وهمـــا فى يدى أو فى طعامى وشرابى
كان يضنيك نحولـــى وإذا مسنى البرد فزنداك ثيابـــى
وإذا أبكانى الجوع ولـــم تملكى شيئا سوى الوعد الكذاب
هدهدت كفاك رأسى مثلما هدهد الفجر رياحين الروابـــى
كم هدتنى يدك السمر إلى حقلنا فى الغول فى قاع الرحاب [١]

وفى قصيدة الشاعر محمد الهراوى ، يجعل الأم غنـــاء عـــن الأب والأبنـــاء والخال والعم :-

فان قلت يا أماه أغنانى اسمها عن الأب والأبناء والخال والعـــم

ويقارن بينها وهى الأمية وبين المتعلمين فيجعل رأيها فوق رأيهم:-

وأمية كانت ولكن رأيهـــا لدى معضلات الأمر فوق ذوى العلم [٢]

وحسن عبدا لله القرشى يجعل من جوانحه وضلوعه سكنا لأمه بدلا من القـــبر ومثوى لها:-

فى عمق أعماقى برو حى فى الحنايا فى الوجيب
مثواك يا أمـــاه لا فى ظلمة الجدث الرهيب [٣]

وإذا كان جل الشعراء قد دارت أمانيهم حول فداء الأم ، فإن فريد عـــين شوكة يجعل أمه هى التى تود أن تفتديه :-

---

[١] ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول صـــ١٣٨
[٢] الرسالة : السنه الثالثة العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧
[٣] ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني صـــ٢٤

ومناها لو أنها تفتديني بالذي يبتغي مني الفداء وترمي [١]

ويرى الشاعر إبراهيم عبد الفتاح نفســـه بجـــانب أمـــه طفـــلا مـــهما كبر، ويهديها دموعا لا تجف:-

مهما علت سني أراني دائمـــا طفلا بجنبك ضاحكا أو باكيـــا
كم كنت أسال في حياتك ما الذي أهدي إليك لكي يبين ولائيـــــا
أي الهدايا ترتضيين أزفهـــا لك كي أكون على الجميل مجازيا
والآن لا أهدي إليك هديـــة إلا دموعا لا تجف جواريـــا [٢]

ولا تتحمل نازك الملائكة هذا الألم الذي يعتصرها بفقد الأم ، فتلجأ إلى التعزي ،ولم تجد لألمها منفذا غير أن تشخص هذا الألم وتغني له :-

أفسحوا الدرب له للقادم الصافي الشعور
للغلام المرهف السابح في بحر الأريج
ذي الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوج
إنه جاء إلينا عابرا خصب المروج
إنه أهدأ من ماء الغدير
فاحذروا أن تجرحوه بالضجيج
إنه ذاك الغلام الدائم الحزن الخجول
ساكن الأمسية الغرقى بأحزان خفية
والزوايا الغيهبيات السكون الشفقية
أبدا يجرحه النوح ويضنيه العويل

---

[١] الرسالة السنه١٥ سنة ١٩٤٧م المجلد الثاني العدد ٧٤٧ صـ١١٨٧

(٢) ومضات فكر ونبضات قلب : إبراهيم عبدالفتاح صـ١١٤٣

فليكن من صمتنا ظل ظليل
يتلقاه وأحضان خفية [١]

ويصور سيد قطب فى مرثيته لأمه موتها ، فيجعله موتا للأب ، فقد كان فى وجود الأم غناء عنه (اليوم فقط مات أبى،واليوم فقط أصبحنا شتيتا منثورا، وإن لأضم اليوم إلى صدرى ابنكما وابنتيكما ، أضمهم بشدة لا ستوثق من الوحدة) [٢] *فقد أحس بالفقد ،أحس بفقد أبية وأمه ، إنه يضم أخواته إليه لعله يستشعر وجوده ، ويحس بمن حوله، بعد أن ماتت أمه وأحس بأنه شتيتا منثورا .*

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة على أمينه قطب بعد موت أمها(أصحيح أن ما معنى على رحيلك عنا هو تسعة أيام؟ إذن كيف تمر الشهور والسنون؟) [٣]

وينكر عبد المنعم خلاف فى رثاء أمه أن تذهب هذه المعانى العلوية إلى التراب وأن يفصل الله بين قلبه وقلب أمه وأبيه إلى الأبد (كلا لن تذهب هذه المعـــانى العلويـــة إلى التراب أيها المجانين الملحدون المفكرون للبعث لا بد أن تحيا هذه المعانى ونحيا لها لندركـها فى دار الشرح والتفسير لكل ألغاز الحياة كلا لن يضرب الله بين قلبى وقلبها وقلـــب أبى ويفصل بيننا إلى الأبد)[٤]

وتصور وفاء وجدى الموت فى كلمات مركزة ،تختزل فيها ساعات المـــرض والألم وطلوع الروح (أهات – حشرجة –غيبوبة) وتصور الموت على أنه زائر مكروه تســـلل

---

[١] ديوان نازك الملائكة المجلد الثانى :صـــ٣٠٩

[٢] الرسالة: العدد ٣٨٢ :

[٣] الرسالة: العدد ٣٨٢ :

[٤] الرسالة: العدد ٦٥٢ السنة ١٣ .

خلسة بالنهار ، وما كانت تدرى أن القدر يتسلل فى أى لحظة (لكن ما عن لنا أن يـأتى زائرك المكروه ، يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر) (٥)

ونلمح تفردا عند جميلة العلايلى فى قصيدة "عيد الأم " وهى تبدأها بقولها " العيـد عاد ولم تعودى " وكأنها تنتظر عودتها فى الحقيقة، *ومع ذلك فهى تفاجأ بعـــدم عودتهـا وبغيابها فى العيد :-*

العيد عاد ولـم تعـودى يا من ملأت بها وجودى
الطير يشدو فى الخمائل أين ملهمتى نشيـــــدى
وأرى فؤادى لاهثـــــا مستنزفا دمع القصيـــد
وتغيب أحلامى التـــى أسعدتها فى كل عيـــد (١)

● *التأسى والعزاء :-*

عندما يبكى الشاعر أحدا بعيدا عنه ، غير قريب منه ، فهو يشـــارك غيره فى هذا المصاب ، يواسيه ويعزيه ، ويحاول أن يدعوه إلى الصـــبر والتأسى بالآخرين ويسوق له النماذج التى ترده إلـــى الصـــبر الجميـــل ، والحال غير ذلك فى قصيدة الرثاء ، فالمصاب مصاب الشـــاعر ، وهـــو يبكى فجيعته هو ، فهل هو فى حاجة إلى أن يوقف جمـــاح هـــذه النفـــس الحزينة البائسة ، وأن يردها إلى التصبر والصبر الجميـــل ، وهـــل هـــو

(٥) ديوان :الرؤية من فوق الجرح صـــ٣١
(١) ديوان نبضات شاعرة صـــ٣٠

بفاعل؟ وإذا فعل فهل هو بقادر على كبح جماح هذا اللب الطائر والنفـــس المتزعزعة ؟.

الواقع أن كثيرا من الشعراء قد وجدوا فى التأسى والعـــزاء مـــلاذا ونجاة من التشتت والضياع وعصمة من أن تتناثر هذه النفس الملتاعة إلـــى أشلاء من هول الفاجعة. ومن هؤلاء الشعراء الذين أصيبوا فى أولادهـــم فكان ملاذهم التأسى والتصبر ، أبو ذؤيب الهذلى وغـــيره مـــن الشـــعراء (وكان من عادة الشعراء السابقين أن يضربوا الأمثال فى المراثى بـــالملوك والأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة فى قلل الجبال، والأسود الخادرة فى الغياض، وحمر الوحش المتصرفة بين القفـــار، والنســـور والعقبـــان والحيات لبأسها وطول أعمارها. وذلك فى أشعارهم موجود لا يكاد يخلـــو منه شعر. فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل [1] ومن الشعراء من رفض هذا التأسى وذاك العزاء ، عندما استحكم المصـــــاب وتمكنـــت الفجيعة من النفس ، وابن الرومى من هؤلاء الشعراء الذين ***رفضـــوا هـــذا التأسى والتصبر عندما أصيب فى ولده:-***

وما سرنى أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من معدى [1]

والملاحظ على قصيدة رثاء الأم أن كثيرا من الشـــعراء. يحـــاولون التأسى والتصبر والتماس الأسباب التىتدعو إلى ذلك ، فمنهم من ينجح فى

---

[1] العمدة : ابن رشيق جـــ٢ صـــ ١٥١ دار الجيل الطبعة الرابعة

[1] ديوان ابن الرومى جـــ٢ صـــ٦٢٥ ، تحقيق حسين نصار القاهرة مطبعة دار الكتب سنة ١٩٧٣م

ذلك ، ويستطيع التماسك والصبر ، ومنهم من يزلزل الجزع أركانه ويـهدد كيانه.

فمن هؤلاء الشعراء الذين تصبروا بالسابقين ، وبان الموت كاس محتوم يشربه كـل بنى البشر، الشاعر أحمد شوقى عندما يقول :-

خلقنا للحياة وللمـــــــات	ومن هذين كل الحادثـات
ومن يولد يعش ويمت كان لم	يمـــر خياله بالكائنـات
ومهد المرء فى أيدى الرواقى	كنعش المرء بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكـــاء	فهل يخلو المعمر من قذاة
هى الدنيا قتال نحن فيـــــه	مقاصد للحسام وللقنـــاة
وكل الناس مدفوع إليـــــه	كما دفع الجبان إلى الثبات
نروع ما نروع ثم نرمـــــى	بسهم من يد المقدور آت [٢]

وشوقى قد رثى جدته بهذه القصيـــدة، وبدأهـــا بـــالتصبر والتأســـى بالسابقين ، وبأن كأس المنية دائر على الجميع، ولكنه فى رثاء أمه لا يبـدأ القصيدة بهذا العنصر ، بل بدأها شاكيا باكيا من عوادى الذوى ، وشـــاكيا إلى الله هذا السهم الذى أصاب فؤاده بموت أمه ، ولكـــن عنصـــر الألـــم والشكوى والبكاء والتفجع الذى افتتح به قصيدته لم يدم طويلا ، ولم يقـــف عنده إلا فى سبعه أبيات سرعان ما انتقل بعدهـــا إلـــى عنصـــر التأســـى

[٢] ديوان شوقى حـــ٢ صـــ٣٩٨

والتصبر بان حكم المقادير نافذ ، والموت حتم ، وإلى حيث آبـــاء الفتـــى ***يذهب الفتى ، وهى سبيل قد دان بها العالمون منذ القدم :-***

ولم أر كالأحداث سهما إذا جرت ولا كالليالى راميا يبعد المرمى

ولم ار حكما كالمقادير نـــافذا ولا كلقاء الموت من بينها حتما

إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى سبيل يدين العالمون بها قدما [١]

وعنصر التأسى والعزاء بان المـــوت قضـــاء الله ولا راد لقضائـــه ***موجود فى قصيدة عائشة التيمورية فى رثاء أمها:-***

وإرادة المولى تعالى شأنه حتمت لنا هذا فماذا نصنع [٢]

وتعزى الشاعرة وفاء وجدى نفسها بان أمها وان كانت قد مـــاتت ، وفقدت بموتها الرحمة والحب ، فان بين ضلوعها قلب هذه الأم برحمتـــه وحبة ووداعته فإن قلب الأم لا يموت :-

وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب
لكن عزائى أنى أملك قلبـــــك
فهنا بين ضلوعى يا أمى قلب الأم [١]

---

[١] ديوان شوقى حـــ٢ صـــ٥٣٣

[٢] حلية الطراز: عائشة التيمورية صـــ٣٠

[١] الرؤية من فوق الجرح ، وفاء وجدي صـــ٣٣ طبعة الهئية سنه١٩٩٨م

ومن الشعراء الذين فقدوا هذا العنصر وهو التأسى والصبر ، وسيطر عليهم الجزع والهلع ، محمد الهراوى حين يصور محاولة التماس الحـــزم والصبر فلا يجدهما وكيف يجدهما وقد ماتت من كـــانت مصـــدر الحـــزم بالنسبة له ؟ ***وأين مصدر السلوى وقد غاب مثالها فى عينه وطيفها فـــى حلمه :-***

تلمست حزمى فى المصاب فعزنى لقد غاب عنى فى الثرى مصدر الحزم
وأنى لى السلوى وقد حال دونها مثالك فى عينى وطيفك فى حلمـــى [٢]

ويعلن الشاعر فريد عين شوكة أنه لا صبر ولا عزاء أمام فقـــد الأم ويرفض لوم اللائمين له فى بكاء أمه ، وهو يعلن هذا من بداية قصيدته:-

لا تلمني على بكائي وغمـــــى أي صبر يعين في فقد أمـــــــــي
أي كنز فقدته في نواهـــــــا أي خسر أصابني أي غـــــــــم[٣]

وفى نهاية القصيدة وبعد تعداد خصالها وتصوير مدى الفجيعة فيـها يرفض أن يهجر دمعه ، ويـــأبى أن يـــترك حزنـــه ويتمنـــى ألا يعـــرف الصبر :-

يا لها من فجيعة رزأتهـــا فى سجايا عظيمة أى عظـــــم
أيها الحزن لا عدمتك حتـــى تسحق النار فى أتونك عظمـــــى
أيها الدمع لاهجرتك حتـــى ينزف القلب فى انسكابك دمـــــى
أيها الصبر لا عرفتك حتى يستوى فى جوار أمى جسمى [١]

---

[٢] الرسالة: السنه الثالثة سنه١٩٣٥ م العدد ١٢٨صـــ٢٠٢٧

[٣] الرسالة : السنه ١٥ سنة١٩٤٧م العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

ومن الشعراء الذين رفضوا العزاء أيضا ووجـــدوه جمـــرا يكـــوى فؤادهم المكلوم، فلا الرثاء يخفف عنه، ولا كلمات العزاء تواسيه ، بـــل إن كلمات المواساة لتسيل دمعه، ***الشاعر إبراهيم عبدالفتاح حين يقول :-***

أغلى الكنوز دفنتها فى حفـــرة ورجعت مكلوم الجوائح داميا
أجد العزاء من المعزى لاذعـــا كالجمر يسقط فوق قلبى كاويا
إن يحبس الدمع الحياء أسالـــــه من جاء بالقول الجميل مواسيا
راحت وقد وخط المشيب مفارقى فرأيتنى كالطفل يصرخ باكيا
قالوا تخفف بالرثاء تصوغـــــه كم كان شعرك بالجراح مداويا
فأجبت ألجمني الأسى لم يستطع قلبي المحطم أن يصوغ مراثيا [٢]

وهكذا وجدنا تنوع الشعراء أمام الحدث ما بين جازع هلـــع رافـــض للصبر والتأسي، وما بين متماسك يحاول التأسي والتصبر.

● ***الدعاء للأم :-***

من قديم الزمان وقصيدة الرثاء تحمل معانى الدعاء بألفـــاظ شـــتى وبصـــور متعددة وأكثر الدعاء بالسقيا لهذا القبر، وبالرحمة للميت، وإذا كان الدعاء بالسـقيا قد كثر فى الجاهلية، فمن الغريب أن يبقى الدعاء بالسقيا للقبر إلى يومنا هـــــذا فى العصر الحديث :-

---

(١) الرسالة : السنه ١٥ سنه ١٩٤٧م عدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

(٢) ومضات فكر ونبضات قلب :إبراهيم عبد الفتاح صـــ١١٤ دار الصفا للطباعة طبعة أولى سنه١٩٩٠م

وقد جمعت عائشة التيمورية فى رثاء أمها بين الدعاء بالرحمة وبين السقيا للقبر :-

يارب فاجعل جنة المأوى لهـــــا دارا بطيب نعيمها تتمتـــع
واسكب على حصبائها سحب الرضا فضلا وإن تك قد سقتها الأدمع [٢]

وقد يتوجه الشاعر إلى ربه مستودعا إياه تلك الوديعة الغالية ،طالبا مـــن الله أن يسكنها الجنة :-

ربـــاه ثـــم وديعـــة فى ظل يرزخك العجيب
حطهـــا برحمتـــك القريـــ بة أنت علام الغيوب [٣]

وربما أوجز الشاعر الدعـــاء ، وأعلـــن انـــه ســـيدعو لهـــا ســـائلا الله أن يقبل هذا الدعاء :-

والآن لا أهدى إليك هديـــــة إلا دموعا لا تجف جواريـــا
ودعاء قلب قد عرفت وفـــاءه والله أسأل أن يجيب دعائيا [٤]

ومع ذلك فقد خلت قصائد كثيرة من الدعاء ، وكأن الشاعر يتأبى علـــى الفقـــد والغياب ويرفض الاستسلام للواقع ويتحدث كما لو كانت أمه موجـــودة ، أو غائبـــة وستعود يوما ما ، ومن هنا فقد خلت قصيدة أحمد شوقي ومطران وعبد الله الـــبردونى وغيرهم من هذا الدعاء.

---

[٢] حليه الطراز صـــ٣٠

[٣] ديوان حسين عبدا لله القرشى جـــ٢صـــ٢٤٣

[٤] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

◉ وقفة الشعراء على القبر :-

يشغل المكان الأخر الذى تذهب إليه الأم بعد موتها، أو المثوى الأخير الذى يثوى فيه الجسد، يشغل حيزا كبيرا فى قصيدة الرثاء. فمن الشعراء من يقف بهـــذا القـــبر أو يخاطب أمه من خلاله، ومن هؤلاء الشعراء عائشة التيمورية التى راحت تخاطب القـــبر الذى يضم هذا الرفات الغالي وتلك الدرة اليتيمة. وهى تبدأ قصيدتها بهذا النداء لهـــذا القبر بان يهنأ بمن نزلت فيه ، *وثوت بين أركانه:-*

يا قبر فاهنأ بالتي أحرزتهـــا هي درة في الدرج لاحت تسطع [1]

ومن الشعراء الذين عرضوا للفكرة نفسها، وهى أنهم أودعـــوا كـــنزا غاليـــا في الثرى، الشاعر إبراهيم عبد الفتاح ، فقد وقف مرة وهو يرثى أمه على قبرهـــا ، وراح يحدث روحها ويناجيها ، ويستلهم الرشد الذي عودته إياه ويبل فؤاده الصـــادي ومع إحساسه بالراحة، فإنه راح يتساءل هل يحس قلبها بالراحة عندما يجيئها داعيـــا ؟ هـــل يفيض قلبها بالحنان كعهده دائما ؟ أم ترى تحول إلى القسوة وحاشاه ذلك. ثم يجيـــب هو، حاشا لبرها وحنانها أن ينقص ، وحاشا لقلبها أن يرى متجافيا ، *فهو يحـــس بنبـــض فؤادها فى قبرها عندما يأتيها شاكيا :-*

كم جئت مثواك الأخير محدثا روحا أحب حديثها ومناجيـــا
استلهم الرشد الذى عودتنـــى وأبل فى صدرى فؤادا صاديا
أيحس قلبك بالحنان كعهدنـــا بحناته أم صار قلبا قاسيـــا
حاشا لبرك أن يقل على المدى حاشا لقلبك أن يرى متجافيـــا
إنى أكاد أحس نبض فؤادهـــا فى قبرها أن جئت أشكو حاليا [2]

---

[1] حليه الطراز: صـــ٣٠

ويقف الشاعر مرة أخرى على القبر فى قصيدة أخـــرى يســـميها بهـــذا الاســـم (وقفة على ضريح والدتى الحبيبة) يعلن من بداية القصيدة أنه يعى تماما أنه ليس بالقـــبر غير رمام، وأن روحها الكريمة قد ارتقت إلى السماوات العلى فى علبين، ولكنه يؤمـــن كذلك بأنه كلما زار هذا القبر كلما أتت روح أمه كأنه معها على موعد ،لا يمـــترى ولا يشك فى ذلك يبصرها رغم الفناء أمامه ، يلقى عليها السلام وترد عليـــه الســـلام ،إذا امتلأت نفس امرئ يحبيبه، رآها عيانا عند كل مقام ، إنه يحيئ إليها فى لهفة لحنانها، كأنـــه رضيع ما بلغ الفطام بعد: -

أعاودها فى قبرها لأزورهـــا ... وليس بهذا القبر غير رمـــام
ولكنها تأتى إلى القبر كلمـــا ... وقفت به الـــروح ذات دوام
لقد طارت روح الكريمة وارتقت ... إلى منزل فوق النهى متســـام
أخاطبها لا أمترى فى جوابهـــا ... وأبصرها رغم الفناء أمامـــى
وألقى على أمى السلام تحيـــة ... فأسمع رغم الصمت رد سلامي
وإنى أراها ملء عينى دائمـــا ... وأبصرها فى يقظتى ومنامـــى
وإذا امتلأت نفس امرئ بحبيبه ... رآها عيانا عند كل مقـــام
رآها بعينى قلبه رؤية المنـــى ... فيرتاح قلب فى الفجيعة دام [1]

ويصور كيف أنه أودع كنزا غاليا فى الثرى :-

شيعت فيك حنان أمى للثرى ... ووضعت فى الغبراء كنزا غاليا
أغلى الكنوز دفنتها فى حفرة ... ورجعت مكلوم الجوانح داميا [2]

---

(٢) ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٦
[1] ومضات فكر صـــ١٧٠
(٢) ومضات فكر صـــ١١٤

ومن الشعراء من نظر إلى القبر نظرة جامدة محايدة ،فـــهو صـــامت،وهـــو قبر،وهو قفر:-

حيث أدعوها فلا يسمعنى غير صمت القبر والقفر اليباب (٣)

وهو جدث رهيب مظلم :-

فى عمق أعماقى بـــرو حى فى الحنايا فى الوجيـــب
مثواك يا أمـــــــاه لا فى ظلمة الجدث الرهيـــب (٤)

● **أثر فقد الأم فى الأبناء:-**

يشكل فقد الأم عند الأبناء جرحا داميا ينزف ، ودمعا يهطل ، وقـــد عبر الشعراء والناثرون عن أثر هذا الفقد بصور شتى ، واختلفوا فى هـــذا التعبير باختلاف ظروف الفقد ذاتها. لقد ماتت أم الشاعر أحمد شوقى وهو فى منفاه فى الأندلس ، وكان يعلل نفسه بالعودة إلى مصـــر ولقـــاء آلـــه والسعادة برؤية أمه ، ولكن البرق قطع هذا الأمل حينما نعى عليه أمـــه ، فحزن أشد الحزن ، ***ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المرثية التى بدأهـــا شوقى بالحديث عن الخبر الذى وصله فأدمى قلبه:-***

إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما أصاب سويداء وما أصمـــــــى
من الهاتكات القلب أول وهلـــــة وما داخلت لحما ولا لامست عظما
توارد والناعى فأوجست رنـــــــة كلاما على سمعى وفى كبدى كلما

---

(٣) ديوان عبدا لله البرودونى المجلد الأول صـــ١٣٨

(٤) ديوان حسن عبد الله القرشى المجلد الثانى صـــ٢٤٣

فما هتفا حتى نزا الجنب وانزوى فيا ويح جنبى كم يسيل وكم يدمى
أبان ولم ينبس وأدى ولم يفه وأدمى وما داوى وأوهى وما رما[1]
إذا طويت بالشهب والدهم شقة طوى الشهب أو جاب الغدا فية الدهما

فهو يشكو إلى الله فى غربته ذاك السهم الذى أصاب فؤاده ، وجرح كبده وأدمى جنبه ، وقد وصل سريعا وطوى البلاد حتى وصل إليه.

ويوضح الشاعر خليل مطران وهو يرثى أمه ، تلك النعمة العظيمة التى كان يرفل فيها هو وجميع المحيطين به ، ولكنها لم تدم ، ***وهذا العز الذى تحول إلى ذل بموت تلك الأم:-***

يـا نعمـة عظمـت فلـم تـدم وكـذا تكـون عظـائم النعـم
عشـنا زمانـا وهـى قسـمتنا وغناؤنـا عـن سـائر القسـم
حـتى عدمناهـا فعزتنـا كـالذل والإثـراء كـالعدم
واحـر قلبـا يـا أميمـة أن قضى وغضـى السـعد مـن أمـم
ماذا أنا؟ ولمن مكافحـتى؟ وعلام بذلى قوتى ودمـى

هكذا يعطينا الشاعر فى خمسة أبيات كثيرا من المعـانى المركـزة الهادفة، فأمه كانت نعمة عظيمة ، ولكنها لم تدم وهذا شان النعـم ، لقـد عاشوا زمانا وأمهم هى كل قسمهم من الحياة ، وكفى بها قسما ونصيبـا ، كفاهم عن سائر الأشياء. وفجأة فقدوا هذا النصيب ، فإذا عزهـم يتحـول إلى ذل ، والثراء كالعدم. ثم يشعرنا بالألم الذى اعتراه بعد ذهـاب أمـه،

(١) ديوان شوقى : شرح د أحمد الحوفى جـ٢ صـ٥٣٢ .

وذهاب السعد معها، ويدير حوارا مع نفسه ويسمعنا إياه لنفهم منه أنه لـــم يعد موجودا بعد ضياع أمه، ولم يعد يدرى عن نفسه شيئا، من أنا؟ ولمـــن مكافحتى؟ لقد كان يكافح لتسعد تلك الأم، لتسعد بوجـــوده، فلمـــن يكـــافح؟ ولمن يبذل قوته ودمه ؟٠

والشاعر العقاد، هذا الطود الشامخ، والجبل الأشم الصلب، يتحـــدث عن فراق الأم بحسرة ولوعة، فهو لم يحسب حســـابه علـــى أن هـــذه الأم مفارقة يوما ما، لقد حسب أن الأمومة أخت الدوام والبقاء والعطـــاء، لقـــد راض الخطوب الجسام ومع ذلك لم يرض نفسه على هذا الأمر. لقد عـــلش أبيا لا يفجعه صوت ، ولا يسكته أحد ، وها هو ذا يفجعه صوت النعـــى ، لقد خلا الكون من تلك الأم فأظلم وقد كانت نورا له ولدنيـــاه ، وتحولـــت البلاد إلى قفار وصحارى. ***لقد كان يخاف الخطوب قبل موتها من أجلـــها هى ، ولكنه الآن لا يخاف ، فما الخوف بعد هذه الأم؟ ولم الخوف؟ ومـــن أجل من؟ وعلى من ؟:-***

فراقـــك يـــا أم لم أحتســـب ... لـــه بغتـــــه أو نذيـــرا ترامـــى
ومـــا روضتـــنى لـــــه الحادثـــا ... ت وإن رضت منها الخطوب الجســـاما
كـــأن ادكرتـــك لى مولـــــدا ... فلـــم أدكـــر لـــك يومـــا حمامـــــا
حسبت الأمومـــة أخـــت الـــدوام ... وخـــادعت ظـــنى عليـــها دوامـــــا
وأفحمـــنى فيـــك خطـــب النعـــى ... وفى غـــيره مـــا شـــكوت الفحامـــا
لئـــن عظـــم المـــوت يـــا أمنـــــا ... لقـــد هـــان يـــوم ســـكنت الرغامـــا
ومـــا أرخـــص النـــور لمـــا غـــلا ... لقـــد هـــان يـــوم ســـكنت الرغامـــا
خـــلا الكـــون منـــك فمـــاذا أرى ... مـــن الكـــون بعـــدك إلا ظلامـــــا

فيـا هولهـا مـن قفـار تركـت ... ويا شدت مـا قـد عـرت الرجامـا
تلاقـى ذوى ببطـن الـثرى ... فـانعم بحيـث أقـاموا مقامـا
لأجلك كنت أخاف الخطـوب ... فما الخوف بعدك إلا سلامـا[1]

والعقاد يذكر أبياتا أخرى ، ويجيب فيها على ذاك المتعجب من بكاء العقاد على أمه ، وهو شيخ كبير ، ***فرد عليه بهذين البيتين:-***

تعجب قوم لشيخ بكـى ... أكان المشيب لدمعى فطامـا؟

ونحن مع "البردونى " [2] الشاعر اليمنى المكفوف البصر الذى فقـد أمه ، وقد كانت عينه التى يرى بها ، ولذلك فإحساسه بالفقد أعظم ، فـهو فقد حسى ومعنوى ومن هنا تبدأ القصيدة مباشرة بالإحساس "بالترك" فقـد تركته، وتركته ها هنا، فى مكانه، كيف يتقـدم أو يتـأخر، تركتـه أمـه ومضت. يا طول حزنه واكتئابه، لقد مضت بلا عودة، ***لقد تركته للشـقاء وحده، واستراحت وحدها فى التراب:-***

تركتـنى هـا هنـا بـين العـذاب ... ومضت يا طـول حـزنى واكتئـابى
حيـث لا جـور ولابغـى ولا ... ذرة تنـبى وتنـبى بـالخراب
حيـث لا سـيف ولا قنبلـة ... حيـث لا حـرب ولا لمـع حـراب
حيـث لا قيـد ولا سـوط ولا ... ظـالم يطغـى ومظلـوم يحـابى

[1] ديوان العقاد حـ٢ صـ ٩١٥ حـ١ بيروت ، والأم فى الأدب: فتحى الإبيارى صـ ٢٨
[2] شاعر يمنى من "بردون" التابعة للذمار ، من مواليد سنة ١٩٢٥م ، أفقده الجدرى نعمة البصر فى السابعة من عمره ، تلقى دراسته فى ذمار وصنعاء ، قام بتدريس الأدب فى مدرسة دار العلوم بصنعاء ، ثم عمل مديرا لبرامج الإذاعة، من أعماله الأدبية : من أرض بلقيس : ديوان شعر فى طريق الفجر : ديوان شعر ، مدينة الغد:ديوان شعر ، لعبى أم بلقيس : ديوان شعر ، رحلة فى الشعر اليمنى : دراسة الشعر المعاصر فى اليمن

خلفتـنى أذكـر الصفـو كمـــا يذكـر الشـيخ خيـالات الشـباب
ونـأت عـنى وشـوقى حولهـــا ينشـد المـاضى وبى-أواه-مـــا بى
ودعاها حاصد العمـــــر إلى حيث أدعوها فتعيا عن جـــوابى
حيـث أدعوهـا فـلا يسـمعنى غير صمت القـبر والفقـر اليبـاب
موقـا كـان مصـابى كلـه وحيـاتى بعدهـا فـوق مصـابى
أيـن مـنى ظلـها الحـانى وقـد ذهبـت عـنى إلى غـير إيـاب
سـحبت أيامـها الجرحـى علـى لفحـة البيـد وأشـواك الهضـاب
ومضـت فى طريـق العمـر فمـن مسـلك رحـب إلى دنيـا صعـاب
وانتهت حيث انتـهى الشـوط بهـا فاطمـأنت تحـت أسـتار الغيـاب
آه يـا أمـى وأشـواك الأسـى تلـهب الأوجـاع فى قلـبى المـذاب
فيـك ودعـت شـبابى والصبـا وانطوت خلفـى حـلاوات التصـابى
كيـف أنسـاك وذكـراك علـى سـفر أيـامى كتـاب فى كتـاب
إن ذكراك ورائى وعلـــى وجهتى حيث مجيئى وذهـــابى

ويتحدث البردونى عن حياته وكيف كـانت أمـه تطعمـه وتسـقيه وتدفئه، ***ويرسم صورة رائعة لذلك عندما يصور يده فـى يدهـا أو فـى طعامه أو شرابه:-***

كـم تذكـرت يديـك وهمـا فى يـدى أو فى طعـامى وشـرابى
كـان يضنيـك نحـولى وإذا مسـنى البـرد فزنـداك ثيـابى
وإذا أبكـانى الجـوع ولم تملكى شيئا سوى الوعد الكـذاب
هدهـدت كفـاك رأسـى مثلمـا هدهـد الفجـر ريـاحين الـروابى

كم هدتنى يدك السمرا إلى حقلنا فى (الغول) فى قاع الرحاب[1]

لقد أضنتنه الذكرى ، تلك الذكرى التى تحاصره مـن أمامـه ومـن ورائه ، يتذكر فى طريقه ، وفى طعامه وشرابه ونومه ، لقد كانت أمه هى عينه التى يرى بها الطريق ويشرب ويأكل وينعم بالراحة والهدوء.

ومن هنا فهو يظهر التحسر والتفجع من خلال تلك الذكريات ، مـن خلال سجايا تلك الأم التى حرم منها.

ويصور "حسن القرشى" موت الأم ، وقد أظلمت الدنيا، وحولتهم إلـى أيتام على مائدة الخطوب، لقد ثقلت المصيبة وحطت بكلكلها وناء بحملـها صبر اللبيب. هاهو الشاعر يهتف ولا مجيب، مع أنها كانت فـى حياتـها فصيحة بليغة. ويفجع الشاعر بهذا الصمت الغريب من تلك الأم التـى لـم تعـد تصغـى لـه وتـرد عليـه، ***لا تسـمع نـداء هـذا المفجـوع الملتاع يبكى ويئن:-***

هـا نحـن يـا أمـاه أيـ تـام بمـائدة الخطـوب
حطـت بكلكلـها ونـاء بحملـها صـبر اللبيـب
وهتفـت فـانحبس الجـوا ب وكنـت كاللسـن الخطيـب
تتدفقـين فصاحـة وبلاغـة وتنافسـين صـدى الأديـب
أمـاه هـل تصغـين؟مـا عودتـنى صمـت الغريـب
هـل تسـمعين نجـاء مفـ جـوع بمحيسـه الجديـب؟

[1] الغول : كـ "حول" : ما انحبط من الأرض ، وهو قاع الرحاب من حقول والد الشاعر فى قريته ، ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول دار العودة بيروت ، طبعة أولى صـ ١٣٨

يبكى بثــن وما تعـــــــــو ود فى الأسى ســـــل النجيب[1]

وهذا هو فريد عين شوكة يبدأ قصيدته رافضا على هؤلاء اللوام لومهم وعتابهم على بكاء الشاعر لأمه:-

لا تلمنى على بكائى وغمـــــــى أى صبر يعين فى فقد أمـــــــــى
أى كنز فقدته فى نواهـــــــا أى خســـر أصابـــــنى أى غم

ومع هذا البكاء وهذه الخسارة، وهذا الإحساس بالفقد، فانه ينادى على أخوته، ***والفجيعة مشتركة بينهم أن يتآخوا ويتماسكوا كالبنيان يشد بعضه بعضا :-***

هيه يا أخوتى – ونحن جميعـــــــا فى أسى لافح اللظـــــى مدهـم
كلنا فى فجيعة الأم يطـــــوى جانبيه على سهام وكلـــــم[2]

ثم بعد ذلك يتمرد الشاعر على الصبر والتأسى ، ***وينطلق مرة أخرى لاذا بدمعه وحزنه مستهولا للفجيعة بعد تعداد مآثرها:-***

يالها من فجيعـــــــة رزأقـــا فى سجايا عظيمة أىّ عظـــــم
أيها الحزن! لا عدمتك حـــــق تسحق النار فى أتونك عظمـــى
أيها الدمع لا هجرتك حـــــق يترف القلب فى انسكابك دمـــى
أيها الصبر لا عرفتك حـــــق يستوى فى جوار أمى جسمـــى
لا أطيق الحياة بعد نواهـــــا آه ، يا ليت يومها كان يومـــى[3]

---

[1] ديوان حسن عبد الله القرشى: المجلد الثانى دار العودة بيروت ص ٢٤٣
[2] مجلة الرسالة : صـــ ١١٨٧ السنة ١٥
[3] الرسالة : صـــ ١١٨٧ السنة ١٥

ويبدأ الشاعر محمد الهراوى قصيدته فى رثاء أمه بالحزن والبكاء ،

وينهى قصيدته كذلك بالحزن والبكاء:-

تكشفت الأحداث بعدك يـــا أمـــى فيا طول ما أبقى من الحـــزن والهـــم
الله يـــا أمـــاه مـــا أنـــا بـــــالذى تعود أن يقوى على الحادث الجـــهم
فقدت التى كانت إذا شط بى النوى تسائل عنى فى الدجى سارى النجم

وينهى قصيدته بالاستسلام للحزن،رغم نصيحة أمه لـــــه بعـدم الحـزن والبكاء:-

سأخضع يا أمى لقلبى ومدمعـــــــى على رغم ما أسديت من نصحك الجم
وأبكيك بالقلب الذى تعرفينـــــــه وللدمع شأن غير ذلك فى الحكـــم

ونحن مع الشاعر إبراهيم عبد الفتاح فى مواجهـــة ذلـــك اليـــوم الحزين الذى توفيت فيه والدته، فأدمى قلبه ، لقد دفن أمه ورجـــع مكلـــوم الجوانح داميا، وهؤلاء الناس يعزونه فإذا هذا العزاء يلذع كالجمر فيكـــوى قلبه، ويأخذه الحياء فيحبس دمعه ، ثم تأتى كلمات المواساة فيفيض الدمـــع، وهاهو فى شيخوخته يرتد طفلا صغيرا يجهش بالبكاء، ويطلب من ركـــب الأحبة أن يتمهل فهو لا يطيق الفراق،فقد تحين وفاتـــــه. وهكـــذا تدفقـــت الكلمات على لسان الشاعر بلا توقف، مشعرة بالأسى والحزن، مصورة ما ألم بالشاعر من مصاب فى يوم الخميس، الذى لم يرحم فؤاده، ودفن أغلـــى الكنوز فى القبر ورجع وحيدا حزينا. وقد سلكت الشاعرة نازك الملائكـــة مسلكا آخر، لم يسلكه شاعر قبلها، فقد غلبها الحزن على نفسها ولم تجـــد لألمها من منفذ أو سبيل سوى أن تتعايش معه. تقول نازك مقدمة لقصائدها

قد يكون الشعر بالنسبة للإنسان السعيد ترفا ذهنيا محضا ، غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة. وقــد كــانت القصــائد الثــلاث التاليــة محاولــة للتعزى، ***لجأت إليها على إثر وفاة أمى فى ظروف محزنة،عانيت منها معانــاة خاصة، ولــم أجــد لألمــى منفــذا أخــر غــير أن أحبــه وأغنــى لــه***[1]. *فهى تصور الحزن غلاما مغرقا فى الخجل والأسى يحيى الدموع الخــرس* فى بعض العيون إنه ذاك الغلام الدائم الحزن الخجول:-

ساكن الأمسية الغرقى بأحزان خفيـــــــــــــة
والزوايا الفيهيّات السكون الشفقيـــــــــــــة
أبدا يجرحه النوح ويضنيه العويـــــــــــــل
فليكن من صمتنا ظل ظليـــــــــــــل
يتلقاه وأحضـــــــــان خفيـــــــــــــة
وهو يجيى فى الدموع الخرس فى بعض العيـــــــون
وله كوخ خفى شيد فى عمق سحيـــــــــــــق
ضائع يعرفه الباكون فى صمت عميـــــــــــــق[2]

وراحت الشاعرة تهدى هذا الغلام الحزين ، أدمعها الفدية ، ***وأساها العميق ، وشذى حزن عميق:-***

---

(١) ديوان نازك الملائكة : المجلد الثانى . دار العودة بيروت سنه ١٩٨٦ صـــ٣٠٩

(٣) المرجع السابق صـــ ٣٠٩

وسنهديه انفجار الأدمـــع العذبـة سلـــــــوى

وسنحبوه أســـى أقـوى وأقـــــــــوى

وســـنغطيه عيـــــــونا وجبـــــــــاها

إنه أجمل من أفراحنا مـــن كـــل حـــــــب

إنه زنبقة ألقى بها المـــــــــوت عليـــــنا

لم تزل دافئة ترعش فى شوق يديـنـــــــــــا

وسنعطيها مكانا عطرا فى كـــل قلـــــــــب

وشذى حزن عميق القعـــــــــر خصـــــــب

إنه منا وقـــــد عـــــتاد إلينـــــــــا[1]

وتسلك الشاعرة وفاء وجدى[2] مسلكا آخر ، ***عندما ترسم صورة لشبح الموت وهو يلم بوالدتها وتصور تلك اللحظات الأخيرة بقولها:-***

(١)المرجع السابق صـــ ٣٠٩

(٢)ديوان:الرؤية من فوق الجرح : وفاء وجدى صـــ٣١ طبعة الهيئة سنه ١٩٨٨ م

دقت ساعات الليل ثقيـــــــتلات الخطوات
تتعثر بين دقائقنـــــــا وثوانينـــــــــا
آهات .. حشـــــرجة .. غيبوبـــــــة
لكن ما عنّ لنا أن يأتى زائرك المكـــــــروه
يتسلل من ثقب فى نافذة الظهـــــــــــر
لو أدرى أن الظهـــــر يخـــــــــــون
لسددت بقلبى كل ثقـــــوب النـــــــور
لتشبثت بساعات الليـــــل الظلمـــــــاء
وعشقت الليـــــــل الملعـــــــون
لو أدرى أن عناقك لى فى تلك الليـــــــلة
كـــــــــان عنـــــــــاق وداع
لصهرت ضلوعى بين يديك وعششت بصـــــدرك
ومضيت إلى حيث تكونين أكـــــــون....
لـــــــــــــــو أدرى [1]

وجميلة العلايلى تنشد قصيدة فى عيد الأم فتبدأ قصيدتها بكلمة تحمـل كل معانى الأسى والحزن والضياع "العيد عاد ولم تعودى" كأنها لا تصـدق أنها ذهبت بلا عودة، كأنها مازالت تنتظر أمها علّها تعود، وهى فـى هـذا الانتظـار تـنزف دمعـها قصيـــدا، ***وتدعـــو ربـــها كـــل يـــوم أن تعود تلك الأم:-***

[1] المرجع السابق : الصفحة نفسها .

العيد عاد ولم تعـــــــــودئ يا من ملأت بهـــا وجـــــودى
الطير يشدو فى الخـــــــمائل أين ملـــهمتى نشـــــــيدى
وأرى فـــــــؤادى لا هيثـــا مستنزفا دمـــــع القصيـــــد
وتغيب أحـــــــــلامى التى أسعدتها فى كـــل عيـــــد[1]

والشاعر عمر بهاء الدين الأميرى، يخصص لأمـــه ديوانـــا خاصـــا باسمها يسميه ديوان "أمى" [معبرا عن شعوره الفياض الحنون تجاههـــا حية وميتة [2] وهو يصور فقده لأمه وعمق جراحه عندما يقول:-

أماه فقدك عندى أفدح النـــــوب جراحه نكأت جرحى بفقـــد أبى
يا للسنين لقد مـــــرت صحائفها تترى كأن بها رتل من السحب
خمس وعشرون من عمرى مـــــرزأة مليئة بضروب الهم والوصـــب
صبر وشكر وشكوى وارتقاب غد كل يوم غد فى حلم مرتقب[3]

ويصور الشاعر محمد أحمد العزب[4] موت أمه فى نغمـــة حزينـــة باكية لا ينقلها إلينا مباشرة أو فى جمل تقريرية جافة ، فهو لا يقـــل إننـــى أبكى أو أننى حزين ، ولكنه يصور تعجبه واندهاشه من سير الحياة ســـيرا طبيعيا مع أن أمه قد ماتت ، فلا الحزن فى عيـــون النـــاس ولا الحمـــائم توقفت عن الطيران ، ***وهو يصرخ فى الكون كله "أمـــى مـــاتت" "متنـــا"***

---

(١) ديوان: نبضات شاعرة: جميلة العلايلى طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١ م
(٢) الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات قلب: د / محمود حسن ناجى ص ٢٣٤
(٣) ديوان أمى صـــ ١٧١ .
(٤) الأعمال الشعرية الكاملة : د/ محمد أحمد العزب صـــ ٦١٣ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م

ويتمتم الناس فى جمل جافة محفوظة تلقى دون إحساس "يرحمـــــها الله" ويرى الشاعر أنه لا جدوى من البقاء بعدها:-

"أمى ماتت"
وأحدق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا !!
يا قسوة عين لا تبكى أحزان الناس !!
"أمى ماتت"
لكن حمائم جارتنا تمضى عنى ..
مثنى .. مثنى !!
وأنا أتتحسس كلمات ذابلة الوجه بلا معنى!!
ماتت .. متنا !!
ويتمتم شيخ ثلجى الإحساس!!
" أجل ... يرحمها الله !!
يا شيخ تألم لى ...
صّعد حتى من شفتيك الآه !!
ما أقسى قلبك ... ما أقساه !!!
ويسير البعض على أعناق الناس إلى الوادى الآخر !!!
وأنا أتساءل :
ما جدوى أن أحيا -أو يحيا الأخر ؟

وقد رثى الشيخ سيد قطب رحمه الله أمه نثرا تحت عنـــــوان "أمـــاه" فيصور حالته ، وحالة إخوته بعد فقد الأم وكيف تشتت الأسرة ، وأحـــــس

بالوحدة ، وأحس بفقد أبيه ، وهو يصور ذلك ***فيقول:***- " من نحن اليوم يـــا أماه؟؟ – بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا؟ ما عنواننا الذى نحملـــه فى الحياة ونعرف به؟ إننا لم نعد بعد أسرة "، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا ***يقولون*** :- "هذه أسرة فلان ، بل أصبحوا ***يقولون*** : -"هذا فلان وهـذا أخوه، وهاتان أختاه!، اليوم فقط مات أبى، واليـــوم فقـــط أصبحنـــا شـــيئا منثوراً، وإنى لأضم اليوم إلى صدرى ابنكما وابنتيكمـــا، أضمـــهم بشـــدة لأستوثق من الوحدة، وأشعرهم بالرعاية. ولكن هيهات هيهات، فأنا وهـــم بعدك أيتام يا أماه [1] وهو يصور فى بساطة شديدة مع عمق بعيد ودلالـــة قوية إحساسه بالفقد والتشتت والضياع ، فالنـــاس كـــانوا يقولـــون أســـرة فلان، واليوم ***يقولون*** :-" هذا فلان، وهذا أخوه، صـــورة بســـيطة لكنـــها عميقة وتستمد عمقها من بساطتها". ***وكذلك إحساســـه بالتشـــتت فـــيروح يلتصق بأخيه ، يضمه إليه علّه*** يشعر بالوحدة والتوحد ، ولكن آنـــى لـــه ذلك بعد فقد الأم، هيهات هيهات لقد أصبح يتيماً بعد فقد أمه، غريباً بعـــد موتها.

وقد رثت تلك الأم،أخت الشيخ سيد قطب أيضا، الآنسة أمينة قطـــب، فى مجلة الرسالة تحت عنوان "***بعد الفاجعة***" وهى تتشكك منذ البداية فـــى قدرتها على الكتابة بعد فقد أمها فقد كانت تلك الأم (القوّة الغريبـــة التـــى تشع الحياة فى عقولنا ونفوسنا، فنفكر ونحس ونقوى على العمل) وبعد فقـد تلك الأم لم تعد قادرة على الكتابة لأنـــها بفقـــد الأم فقـــدت كـــل شـــيء

[1] الرسالة: العدد ٣٨٢

(والآن ماذا فقدنا بفقدك يا أماه؟ لقد فقدنا كل شيء فكفــت عقولنــا عــن التفكير وأظلمت نفوسنا وخمدت فينا جذوة الحياة)[١]

وتقارن أمينة قطب بين حالتها قبل موت الأم وبعده، فإذا حالــها قــد تبدل ونفسها قد تغيرت، وذلك حين تقول (أمى٠٠٠٠ أصحيح أن ما مضى على رحيلك عنا هو تسعة أيام ؟ إذن كيف تمر الشهور والسنون؟ تســـعة أيام فقط تتبدل فيها نفسى هذا التبديل ؟

أين نفسى الأولى المرحة المشرقة المتفتحة للحياة الخالقة للآمال؟ أين هى من هذه النفس الميتة الغائبــة عــن العــالم، ومــا فيــه مــن أمــال وأحلام، ***البعيدة عن كل ما فى الكون مــن مبــاهج وجمــال؟ إن هــاتين النفسين لتفصل أحدهما عن الآخرى سنون وأجيال***[٢]

ويكتب الأستاذ عبد المنعم خلاف راثيا أمه، وقد أحس يوم موتــها أن حياته قد انشطرت، وأنه أصبح كغصن غاب عنه جذعــه الــذى يربطــه بالأرض (وهاهو ذا وجهها يطالعنى بعد موتها مغمض العينين ينظر لــى من فوق سرير الموت ومن أعماق ظلمات القــبر، فأشــعر لمفارقتــها أن حياتى قد انشطرت، أو أنى كغصن غــاب عنــه جذعــه الــذى يربطــه بالأرض[١])، وتذكره كل معانى الحياة اليومية بتلك الأم فتثير هذه المعانى

---

[١] الرسالة: العدد ٣٨٢

[٢] الرسالة: العدد ٣٨٢

[١] الرسالة: العدد ٦٥٢

فـــى نفســـه شـــــجنا وحزنـــــا يعينـــــه فـــــى حياتـــــه الروحيـــــة (وحين أمرّ بسريرها خاليا من جسدها الذى كان ملء نفسى وفكرى، وحين أرى ثيابها يعمرها شبحها، وأتذكرها تمر بالمنزل حجرة حجـــرة كطيـــف رحمة٠٠٠ وحين أقرأ مدونة محفوظات أمثالها وحكمها الكثـــيرة العجيبـــة التى كانت تستشهد بها كأحسن منطق فى منطق العامية المصرية نقلا عـــن عمتها الحاجة "***شركس*** " الصالحة التى لم تنجب وكـــــان همـــها العبـــادة والتوجيه لشباب لعائلة. وحين أرى البقية القليلة مـــن لداتـــها وصديقاتـــها اللائى من طراز كـــاد يفنـــى بـــل حيـــن أرى عجـــوزا مثلـــها فـــى أى مكان٠٠٠ **حين هذا كله شعرت وأشعر أنها خلفت لقلبى زخيرة قيمة مـــن الحزن الثمين اللذيذ يقتات منه فى أزمات القحط الروحى**[٢]).

● ***صور متفردة:-***

قصيدة الرثاء لها طابعها الخاص،فهى تكاد تكون مقصورة على بكـــاء الأم، ومع ذلك نجد فيها الفخر من الشاعر بنفسه ، ونجد ظـــــروف إنشـــاء القصيدة تلقى بظلالها على الأبيات فى صور متفردة فى كل قصيدة علـــــى حدة٠

---

[٢] الرسالة: العدد ٦٥٢

ومن ذلك ما وقع لشوقى حين بلغة نبأ وفـــاه الأم وهـــو فـــى منفـــاه بالأندلس بعد قيام الحرب الضروس ، ***ومن هنا فقد ألقت ظـــروف النفـــى والحرب بظلالها على تلك القصيدة :-***

حافت بما أسلفت فى المهد من يد ... واوليت جثمانى من المنة العظمى
وقبر منوط بالجلال مقلـــــد ... تليد الخلال الكثر والطارف الجمـــا
وبالغاديات الساقيات نزيلـــــه ... من الصلوات الخمس والآى والأسما
لما كان لى فى الحرب رأى ولا هوى ... ولا رمت هذا الثكل للناس والبتمـــــــا
ولم يك ظلم الطير بالرق لى رضا ... فكيف رضائى أن يرى البشر الظلمـــا ؟
ولم آل شبان البرية رقـــــــة ... كأن ثمار القلب من ولدى ثمـــــــــا
وكنت على نهج من الرأى واضح ... أرى الناس صنفين الذئاب أو البهمـــا
وما الحكم إلا فى أولى البأس دولة ... ولا العدل إلا حائط يعصم الحكمـــــــا

كان الشاعر قد نفى إلى بلاد بعيدة عن وطنه ، ومن هنا فقد جاء فـــى قصيدة الرثاء ذاك التشوق والحنين إلى مصر ، ***وما يحســـه فـــى البـــلاد الغريبة وما يعانيه:-***

نزلت ربا الدنيا وجنات عدنهـــا ... فما وجدت نفسى لأنهارها طعما
أريح أريج المسك فى عرصاتها ... وان لم أرح مروان فيها ولا لخما
إذا ضحكت زهوا إلى سماؤهـــــــا ... بكيت الندى فى الأرض والبأس والحزما
أطيف برسم أو ألم بدمنـــــــة ... أخال القصور الزهر والغرق الشما
فما برحت من خاطرى مصر ساعـــة ... ولا أنت فى ذى الدار زايلت لى وهما (١)

---

(١) ديوان أحمد شوقى : حـــ٢ صـــ ٥٣٧

وهذا الحنين إلى الوطن ، والحديث عن الحرب فى قصيـــدة الرثـــاء عند شوقى جاء لظروف خاصة وهى ظروف الحرب والنفى وقت إنشـــاء القصيدة.

وفى قصيدة العقاد فى رثاء أمه ، نلمح أمرا خاصا وهو ذاك النعـــى الكاذب الذى وصله ينعى أمه ، ***فبدأ قصيدته به :-***

لقد كذب الناعى وأنعم بكذبـــــــه فلا صدق الناعون يوما ولا همـــوا
فزعت لخطب الموت والموت واحد فكيف احتمالى فيك مرتين يا أم (٢)

لقد اتضح كذب الخبر الذى ساقه الناعى، وما أعظم أن يكـــون هـــذا الخبر كاذبا، وأن تبقى أمه بصحة وعافية، فلا صدق الناعون يومـــــا. إن الإنسان لا يحتمل وقع الخبر وأثره عليه إذا ما نعيت إليه تلك الأم ، فكيـف باحتماله مرة كذبا ومرة صدقا ؟.

- **<u>الفخر فى قصيدة الرثاء:-</u>**

وهو من الموضوعات التى جاء ذكرها فى قصيـــدة الرثـــاء قديمـــا وحديثا ، وقد افتخر قديما المتنبى بنفسه وهو يرثى جدته ، واقتفـــى أثـــره أحمد شوقى وهو يرثى جدته أيضا.

---

(٢) ديوان أحمد شوقى : حـــ٢ صـــ ٥٣٧

● **فإذا قال المتنبى :-**

ولو لم تكونى بنت أكرم والد　　لكان أباك الضخم كونك لى أما

قلده شوقى فقال:-

ولو لم تظهرى فى العرب إلا　　بأحمد كنت خير الوالدات

وهو يفخر بنفسه فى بقية القصيدة واصفا نفسه بأنه أحكم الشعراء وأبلغ الكتاب ، وهو صائن للأعراض ، وحافظ للعهود، قد خبر الدهر وتعلم الصبر على النوائب ، وقد علمه الدهر أن يكون حذرا ، وإن كان لا يغنى حذر من قدر ، ***ولكنه يخشى المباغتة:-***

فكان الوالدان هدى وتقوى　　وكان الولد هذى المعجزات
ولو لم تظهرى فى العرب إلا　　بأحمد كنت خير الوالدات
تجاوزن الولائد فاخرات　　إلى فخر القبائل واللغات
وأحكم من تحكم فى يراع　　وأبلغ من تبلغ من دواة
وأبرأ من تبرأ من عداء　　وأنزه من تنزه من شمات
وأصون صائن لأخيه عرضا　　وأحفظ حافظ عهد اللدات
وأقتل قاتل للدهر خبرا　　وأصبر صابر للغاشيات
كأنى والزمان على قتال　　مساجلة بميدان الحياة
أخاف إذا تثاقلت الليالى　　وأشفق من حقوق النائبات
وليس بنافعى حذرى ولكن　　إباء أن أراها باغتات(١)

(١) ديوان شوقى حـ ٢ صـ ٤٠٠ دار نهضة مصر تحقيق د/ أحمد الحوفى

ويرثى أمه بعد أن أتاه الخبر وهو فى منفاه فى الأندلس ، ويفتت الحزن نياط قلبه ، ومع ذلك لا يترك الفخر فى قصيدته. ولعل ذلك من تأثير معارضته للمتنبى فى رثاء جدته.

فهو يختم قصيدتــه مخاطبــا والدتــه مادحــا إياهــا مثنيــا عليــها من ناحية ، ***ومفتخرا بنفسه من ناحية أخرى:-***

لئن فات ما أملتــــه مــن مراكــب ... فدونك هذا الحشد والموكب الضخمــا
رثيــت بــه ذات التقــى ونظمتــه ... لعنصره الأزكــى وجوهــره الأسمــى
نعتــك منــاجيب العــلا وغيتــها ... فلم تلحقــى بنتــا ولم تســبقى أمــا
وكنت إذا هذى الســماء تخــايلت ... تواضعت لكن بعــد مــا فتــها نجمــا
أتيت بــه لم ينظــم الشــعر مثلــه ... وجئت لأخلاق الكــرام بــه نظمــا
ولو نهضت عنه الســماء ونهضت ... به الأرض كان المزن والقبر والكرما(٢)

فإن كان قد فات هذه الأم مــا كــان يليــق بمثلــها مــن مراكــب ومواكب، فهاهى أبياته وقصائده تقوم هذا المقام، فهى تستحق هذا، وهــى من المناجيب التى لم يلحقها ولم يسبقها أحد، وهى رغم ذلك كان يجللــها التواضع رغم إنجابها لهذا الشاعر الذى لم ينظم الشعر مثله أحد.

ونجد هذا الفخر فى قصيدة مطران وهو يرثى جدته ، ولكــن نغمــة الفخر هادئة متطامنة وليست شخصية ، ***فهو يمدح جدته بأنها أنجبت نسلا عظيما كلهم يعتلى صهوة المجد:-***

(٢) الديوان حـ ٢ صـ ٥٣٧

يبكيـــك نســـل كثـــير أنجبتـــه للمعـــالى
بـــين الكـــهُول وبـــين الشـــباب والأطفـــال
أهلـــة وبـــدور مـــن فتيـــة ورجـــال
وأنجـــم وشمـــوس مـــن عفـــة وجمـــال
تفاوتوا طبقـــات فى السن لا فى الكمـــال(١)

وعندما يرثى البردونى أمه، ويذكر خوفها وحدبها وإشفاقها عليـــه ، يفتخر بنفسه، ليسعد أمه فى قبرها بأنه قد أصبح رجلا تفتخر به الأمـــهات. فإذا كانت الأم قد خافت على مصيره، وفزعت لعماه، فقـــد آن الآوان أن تطمئن وأن يهدأ بالها، فقد أصبح طائر الصيـــت، ***يمـــلأ التـــاريخ مجـــدا وخلودا:-***

كـــم بكـــت عينـــاك لمـــا رأتـــا بصرى يطفا ويطـــوى فى الحجـــاب
وتذكـــــرت مصـــــير بـــين جبينـــك جـــراح فى النـــهاب
هـــا أنـــا يـــا أمـــى اليـــوم فـــتى طائر الصيـــت بعيـــد فى الشـــهاب
أملأ التاريخ لحنًا وصـــــدى وتغنى فى ربا الخلد ربـــــابى[1]

*في حياة الأم :-

هل هي مقولة صحيحة تلك التي رصدت خلو الشعر العربي من الحديث عـن الأم إلا حين موتها ؟والتي تقول (وفى إمكاننا أن نمر سريعا بعدد كبير من الشعراء حتى نصـل إلى أبى الطيب المتنبي فنجده يذكر الأم في قصيدته التي رثى بها جدته لأمه، فهو لم يذكـر الأم إلا بمناسبة الموت ، وكذا الحال في شوقي ... فديوان شوقي الكبير لم تحظ الأم إلا

---

(١) ديوان الخليل : حـ ٢ صـ ٥٥٤

(٢) ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول صـ ١٣٨ دار العودة، بيروت طبعة أولى سنة ١٩٧٩ م

بقصيدة واحدة ، ومتى؟ بعد مماتها ... حتى القصيدة لم ينظمها كلها فى أمه، وإنما غلف عاطفته بمناجاته للوطن ... حتى العقاد لم ينشد قصيدة عصماء عن أمه ،إلا بعـــد أن طواها الموت تحت ردائه الكالح ،عندئذ فقط صدرت الأنغام الحزينة من قيثـارة العقـاد (١) وان كانت هذه الدراسة على إيجازها قد أشارت إلى بعض القصائد التي تحدثت عـن الأم في حياتها مثل قصيدة روحية القليني"الأم في ديوانها"أنغام حالمة" (٢)

والناظر في ديوان الشاعر أبي فراس الحمدانى ، يجد صلته بأمه في حياتها،وفى أسـره لم تنقطع بل تحدث إليها يوصيها بالصبر ويمنيها بالأجرالذي ينتظرها جزاء هـذا الصـبر ويضع نموذج الخنساء أمامها في صبرها على استشهاد أولادها وصبرها *وقولها : الحمـد لله الذي شرفني باستشهادهم :-*

فيا أمتا لا تعدمي الصبر إنه إلى الخير والنهج القريب رسول
ويا آمتا لا تخطئ الأجر إنه على قدر الصبر الجميل جزيـل
آمالك في ذات النطاقين أسوة بمكة والحرب العوان تجـول (٣)

**** في العصر الحديث:-***

وقد شغلت الأم في عصرنا الحديث فكر الشعراء في حياتها،فتحدثوا عنها وعـن فضلها ودورها واثرها. ومن هؤلاء الشعراء محمد عبد الغنى حسن، فى ديوانـه"سـائر على الدرب" وقد صدّره بقصيدة عن الأم واصفا إياها بالحب الخالص *بقـوله ملهمته ومعلمته هى التى علمته حب زوجته وحب الدنيا وتذوق الجمال وكل جمـال بغـير أم باهت المعالم وكل ضوء فى غياب الأم ظلام وجمود :-*

(١) الأم في الأدب : فتحي الابيارى صـ٣١
(٢) المرجع السابق صـ٣٢
(٣) ديوان أبي فراس الحمدانى صـ٢٣٣

الحب يا أماه منك مزاجـــــه مهما شربنا فيه من أكواب
نلهو بما سمح الزمان بحسنه ونطيق كل شقاوة وعـذاب
ونكاد نلقى فيه كل خســـارة ونكاد نحمل فيه كل تبـاب
لولاك لم نعرج على أعتابــه يوما ولم نلمع على الأبواب
لكن حبك فيه كل قداسة ألــ مغنى وكل طهارة المحراب
أماه بين يديك زوجتى التــى أحببتها فحببت فى شبابــى
ما الذنب ذنبى إن كلفت بحبها إن وصلت بحبها أسبابــى
فالحب منك عرفته وسقيتــه مترقرقا كالجدول المنساب
أنت التى سلسلته فى هيكلــى وأذبته كالشهد بين لعابــى
وأذعته كالعطر ينفخ منكبــى وتفوح من أرج به أثوابى

ويواجه الشاعر خطابه لأمهات اليوم محييا ومعظما لهن ، فهن أنفاس الحياة وطيبـها وجمالها :-

يا باذلات الحب طهرا صافيا في غير ما جلب ولا تصخـــــاب
انتن أنفاس الحياة وطيبهـا وجمالها الدفاق بالأطيـــــاب
كل الجمال بغير أم باهـت لا حسن فيه وكل ضوء خابي [1]

وتنشر الشاعرة جميلة العلايلى ديوانها نبضات شاعرة فتهديه إلى أمـــها وولدهـا وتصدره بتسع قصائد عن الأم متتبعة في نبضات شاعرة فراقها لأمها بالزواج ، وعيـــد ميلاد الأم ، ومرضها ، رغير ذلك من أحداث إلى أن تموت الأم.

والشاعرة جميلة العلايلى تصور فراقها للأم بالزواج والعيش بدونها ، وتكشـــف عن حزنها لأمها وقد بدأت تزيل :-

وقضى زمانى بالفراق كأنه لا بد أن ترمى الحياه سهام

[1] ساثر على الدرب محمد عبد الغنى حسن صـ٧ المكتبة العربية القاهرة سنه ١٩٧٤م

وأرى الحياة بغير وجهك قفرة فالعين تذرف والدموع جسام
وأرى الليالى موحشات جهمة سيان عندى الضوء والإظلام
يا أم لا تبكى الفراق ولا النوى فلسوف تجمعنى بك الأيـــام
أيروم قلبك أن يحطمه الغنـــى وله أعيش وتعـــذب الالأم
يا أم ما نعمتى حياتى إن خلت من قلبك الحانى كذاك حرام

إلى أن تقول :-

لهفى على الأم الرءوم من الضنى ومن الهموم كأنهن ضـــرام
لهفى على الكنف الظليل مضت به ريح الخريف فعاد وهو حطام
لهفى على الروح الطهور وقد بدا طيفا شفيفا قد طواه هيام [1]

وهكذا نرى جزع الشاعرة على أمها وتصويرها لها وقد أصابها الضنى والهموم

وقد حولتها السنون إلى حطام

وترجع الشاعرة بذكرياتها إلى الوراء فى قصيدة تحت عنوان (رغم البعاد أنا معك) تتذكر فيها سهرها مع أمها وهى تحكى لها الحكايات بصوت حنون ، وتتدفق الذكريات

التى يخفق لها القلب وينبض الفؤاد :-

هل تذكرين وقد سهرنا فى الليالى الممطرة
فقضيتها أصغى إلى حلو الأغانى الساحرة
فإذا قصصت رواية تحكين صوت السامرة
من ذا يظن بان شدوك وحى شعر الشاعرة

إلى أن تقول بعد أن تعدد ذكرياتها فى الطفولة والشباب والزواج :-

أه من الذكرى توشوش أيها الأم الرءوم
فى كل نبض للفؤاد تهيم بالقلب الهموم

---

[1] نبضات شاعرة : جميلة العلايلى صـــ١٣

وله خفوق الطير فى يوم العواصف والغيوم
كم ذا أعانى حيرة بين البشاشة والوجوم [١]

وتنشد الشاعرة القصيدة تلو القصيدة فى "عيد الام" و"سلاما يا أمى" و"ميلادهـا" و" أمى تعالى" و"رجع الأنفاس" حتى تصل إلى تلك القصيدة التى تصور فيها مرض أمـها وصدى وجيعتها ، مع أن الشاعرة قد الفت المواجع فقد نالت منها تلك الوجيعة وأثرت فيها ، وهى تضرع إلى هذا الداء العضال أن يرفق بأمها ، وتخاف أن يكون نجم الشـــفاء قد ضل الطريق ، وتضرع إلى الله أن يشفيها:-

إنى ألفت مواجعى حتى غدت لى كالصلاة
يا أم داؤك نال من قلبى المعذب ما اشتهاه
يا داء رفقا بالأمو مِيَة إنها كنز الحيـــاة

إلى أن تقول :-

أيكون نجم شفائها قد طاف دنياها وتـاه
ضل الطريق لبرجه فمتى يطالعنا ضياه [٢]

وليس المرض فقط هو الذى يحرك المشاعر والأحاسيس تجاه الأم فى حياتها ، ولكن الاغتراب وسماع صوت الأم عبر الهاتف فى عصرنا الحديث مما يحرك المشاعر ويثير قيثـارة الشعر وتفـــور المشـــاعر والعواطـف فى قصيـــدة "دمعـــة علـــى سماعـــة الهـــاتف" *يقول فيها الشاعر* :-

يعث الصوت كامن الأشجان مثلما سرنى فقد أبكانـــــــى
نقل الهاتف الحديث المرجى فسرى الدفء والرضا فى كيانى [١]

---

(١) نبضات شاعرة:صـــ١٩
(٢) المرجع السابق صـــ٢٧
(١) إلى حواء : عبد الرحمن صالح العشماوى صـــ٣٩،٤٠،٤١ الناشر : مكتبة الأديب -الرياض الطبعة الأولى سنه١٤٠٦ هـــ

أى صوت هذا الذى خالط النفس وأحيا النشيد فوق لسانى
انه صوتها نشأت عليـــــه نغم فيه قصة الإنســـــان
صوتها لم يزل يعانق قلبـــى فيه فيض من عطفها والحنان
أيها الصوت أين تلك الليالـــى كيف حل النوى محل التدانى
صوت أمى لا شك لكن عينـــى لا تراها ولا ترى إخوانـــى

والشاعر هنا كما نرى يعبر عن تجربة عصرية هى الاغتراب من ناحية ،والحديـــث عبر الهاتف وسماع صوت الأم عبر مسافات طويلة ، فهو يسمع صوتها ولا يملـــى عينـــه برؤيتها ، ولذلك يصرخ قائلا مخاطبا هذا الصوت الذى لم يجد غيره ولم يحس سواه : أيها الصوت أين تلك الليالى ؟ لم أصبحنا فى هذه الغربة ، وحل النوى محل التدانى ؟وإذا كان الصوت قد أسعده فقد أبكاه ،لانه تذكر أمه وتاق إلى رؤيتها.

ونرى الشاعر مرة أخرى يخاطب أمه ويدعوها إلى نبذ اليأس والثقة بالله والرضـــا بما قسم الله ، فقد وطن نفسه على حمل الهموم :-

أماه لا يتأسى فالله يرعانـــــا وفيض إحسانه فى البؤس يغشانا
ثقى به والبسى ثوب الرضا وخذى من الخضوع له نهجا وعنوانـــا
كل الأمور التى تأتى بقدرهـــــا ربى وما شاءه فى أمرنا كانـــا
أماه ما قيمة الدنيا إذا عصفـــت بها الظنون وصار المرء حيرانـا
وطنت قلبى على حمل الهموم فما يعضه البؤس إلا زاد إيمانـــــا

ويعلن الشاعر أن هذا الصمود وهذا الرضا وذاك الصبر ، كل هذه المعـــانى قـــد استقاها من أمه ، تلك التى كانت الظل فى القيظ والنور فى الظلام ، والورود والريـــاحين فى درب الصحراء المقفرة :-

منك استقيت صمودي في الحياة فما أعلنت يأسا ولا أعلنت خذلانا
مضيت في رحلتي والقيظ ملتهـــب فكنت ظلا على دربي وأغصانا

فكنت في ظلمتي نورا أسير بـــه وفى صحارى الأسى وردا وريحانا

ورغم صمود الشاعر وصبره ، ورغم ثقته بالله ، ومع رضاه بالمقدور ،إلا ان أمـــرا واحدا فوق طاقة الشاعر وصبره واحتماله ، وهو فراقه لأمه وبعده عنها :-

أماه كل الجراحات التى اشتعلت .. تهون لكن جراح البعد ما هانا [1]

ومرة أخرى يصحو الشاعر على مناجاة الأم لربها فى دعاء ممزوج بعبرات الحنان ، فتأسره هذه اللوحة ، *ويسجلها فى شعره ،ويهتف بأبيه أن يعود إلى الحياة ولو للحظـــة ليرى وفاء الأم وبرها:*

أبى وقد صرت بعيد المدى وهل يرد المرء من قبـــره
ليتك تصحو يا أبى ساعـــة لكى ترى الإخلاص فى قدره
لكى ترى مرتع أحلامنـــا نستروح الآمال من زهـــرة
لكى ترى أمى على عهدها ترضعنا الإيمان من زهره (٢)

وتهيج عاطفة الشاعر مرة أخرى فى القصيدة تلو القصيدة واصفا حنـــان وعطـــاء الأم ،*ومصورا عجزه عن وصف هذه الأم وعطفها وحنانها :-*

رأيت بعينك المحبة واللطفـــا وشاهدت يا أماه فى وجهك العطفـــا
حنان وإشفاق على ولوعـــة لبعدى فما اغلى الشعور وما أرفـــى
تحسين بالآلام حين أحسهـــا وتشفين من آثارها عندما أشفـــى
يؤنبنى فيك الضمير لأنـــه يرى أن شعرى فيك لم يبلغ الوصفا
وذلك حق ، لو وقفت قصائدى وكل كتاباتى عليك لما وفـــى [1]

---

[1] إلى حواء :صـــ٥
(٢) إلى حواء :صـــ٥٨
[1] إلى حواء : صـــ١٥١

وشاعر آخر يهدى شعره إلى أمه معترفا بأنها قبلــة الحنــان والــدفء والغــذاء والشراب

قبله منك أول القبـــــــلات يا حنانا يحوطنى فى حياتـــــى
يا ابتسام الحياة فى ناظـــرى الغضى وأننى فى وحشة الحالكات
أى طوق يحوطنى كل حيـــن ملؤه الدفء صادق اللمســـات
وغذاء من الشوائب صـــاف سائغ الشرب مغدق البركـــات
قد ترعرعت فى حماك صغيرا وأنا اليوم فى رجال كمـــــاة
بين جنبيك قلـــب أم رءوم لم يزل نابضا كريم الهبـــات
كم أرى الدمع من مآقيك يهمي ذاك دمع الحنان قبل شكاتـــى
أنا يا أمي الحنون نشيـــد يتغنى فى أعذب النغمـــات
آنا يا معدن الحياة هتـــاف فيه أو فى الحقوق للأمهـــات
أنا يا بسمة الوجود سجـــل ملأ الدهر ناصع الصفحـــات
فاقبلي شعري المضمخ بالـــود دعاء من أخلص الـــدعوات [٢]

* ***محنة أم :-***

وقد تتعرض الأم لمحنة من المحن ، فتذوب نفس الشاعر أسى وحسرة ، ويســـجل ذلك فى شعره ، وممن ترض لذلك من الشعراء "المازنى" فأخذ يواسى أمه في غاشية مـــن غواشى الأسى ، *ويدعوها إلى عدم الجزع :-*

يا أم لا تجزعي مما يداهمنـــا من الخطوب ولا تأسى لما فاتـــا
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة ويقسم الله أرزاقا وأقواتـــــا
وكل ضائقة تعرو إلى فـــــرج وان لليسر مثل العسر ميقاتـــا
ضل الذى يرتجى تأخير قسمتـــه قد مات كالكبش إسماعيل قد ماتا [١]

(٢) تراتيم الرمال :"قصيدة أمي" صـ٨٠ عبد العزيز النقيدان ، مطبوعات نادى القصيم الأدبي بريده .
[١] ديوان المازنى جـ٢صـ٢١٣

ويعلق العقاد على هذه الأبيات قائلا : هذه الأبيات قد أودعت نفـــس المـــازنى العطوف الذى يؤلمه الحزن فى نفس أمه ، ولا يشغله عنه حزنه وألمه (٢)

*جنون أم :-

أهاض حناجى مذ أصيبت بلوثة فضاع بها منك التودد والبر

يا لها من محنة قاسية تلك التى تعرض لها الشاعر عندما أصيبت أمـــه بـــالجنون ، واضطر لتقييدها وحبسها رحمه بها ، وقد لجأ إلى الطب فعجز الأطباء وكلـــت حيلـــهم فلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ،وصور هذه التجربة القاسية على نفسه ، فراح ينفثـــها فى شعره ألما ودموعا ، وهو يتوجه فى بداية قصيدته إلى أمه مستعطفا إياها مؤكـــدا أن مـــا يفعله ليس عقوقا بها، ولكنه يفعل ذلك والألم يعتصره :-

حنانيك أمي لا عقوق ولا نكـــــر ولكنها الالأم فى قبضتي سفـــــر
قرأت به الابيات تفرى حشاشتـــى ويعشى بها طرفى ويطوى بها العمر
فمن مقلتى الدمع السخين سحانبـــا على الخد يهميها فؤاد هو البحـــر
براكين من نار يؤججها الأســـــى وثورات ملتاع يدوى بها الصـــدر
حنانيك يا أمي فالهموم تلاحقـــت ولولا البلاء المر ما حير الفكـــر
قساوات الام وشكوى متاعـــــب وينهشنى من وقعها الناب والظفـــر
فان قلت صبرا عاث بالصبر عاصف يجرعني كأسا ثمالتها الصبـــــر
فأختال نشوانا ويا نشوة الأســـى تغيب بإحساسي كما يفعل الخمـــر
فأهذي كما يهذى المضيع لبـــــه ويلهب همي في جوانحي الجمـــر
فاحسب أن الدمع يطفـــــى أواره فابكى عسى بالدمع ينجبر الكســـر
إذا بنصيبى مهجة قد نثرتهـــــا وكان جزائى انه استفحل الأمـــر
فوزعت جرحى بين قلبى ومقلتـــى وفاضت قروحى حين خاننى الصبـــر
حبست أنينى ثم أرسلت عبرتـــ ـى يغالب شكواي المكبلة الجهـــــر

(٢) ديوان العقاد جـ٢صـ٨٦٣

ولم اشك عدما لم ولم أرج حاجــة ... ولكن زمانى طبعه الكيد والغـــدر
أهاض جناحى مذ أصبت بلوثـــة ... فضاع بها منك التودد والبـــر
وخلاك رهن القيد تهذين ليس لـــى ... سوى انة المذبوح لاح له القبـر
وما القبر عندى غير سجنك ينطوى ... عليك كما يطوى بأحشائنا السـر
فان قلت حلوا القيد قالوا جنونهـا ... عضال وهذا القيد يفرضه الحـذر
فما حيلة أستطيع إلا بذلتهـــــا ... فعدت وإن اليسر فى حليتى عسر
وان كان فن الطب قصر عامـــدا ... إلى الله أشكو له النهى والأمـــر
حنانيك يا أمى حبستك رحمـــــة ... فليس على اليوم عتب ولا وزر [1]

سجن الأم قبر بالنسبة له ، وهو الذى يضعها بيده فى هذا القبر ، ويطلب منهم أن يفكوا هذا القيد ، وأن يطلقوها من أسرهم أو من قبرها إذا بهم يوقظوه علـــى الحقيقـــة الفاجعة " جنونها عضال " وبذل الحيل ، ويعجز الطب ، ولا يجد البرد والســـلام إلا فى التسليم بقضاء الله "إلى الله أشكو له النهى والأمر" وربما بدت هذه تجربة شخصيه عاشها الشاعر وانطق يعبر بقصيدته عن هذه التجربة ، فالقصيدة ليست فى الأم ولكنها فى هـذه التجربة التى عاشها الشاعر مع هذه الأم. *وتقول إنها تجربة مع مرض أمه ومع ذلك نرى الشاعر نفسه يخاطب أمه فى عيد الأم داعيا لها بعمر مديد :*

تهان وحبات القلوب عقـــــود ... بيوم بأحلى الأمنيات يعود
على من نفدى بالحياة حياتهـــا ... ونطمع منها بالرضا فتجود
على أمنا من لا نزال بحبهـــا ... نغنى وخلجات النفوس تعيد
وأمالنا أن يحفظ الله روضـــة ... شذاها دعاء والحنان ورود
ونشدو بها والكون يرجع صادحا ... لتحيا وأفراح الحياة بنـود
فيمنحنا المولى الكريم إجابـــة ... بعمر مديد وهى فيه نشيد [1]

(١) مجموعه النيل : طاهر زمخشرى صـ٢٨٩ الناشر قامه ، جده ، العوديه الطبقة الأولى سنه١٩٨٤م
[1] مجموعة النيل : طاهر زمخشرى صـ٦٠٦

قصائد كثيرة وشعراء كثيرون تحدثوا عن الأم فى حياتها وتحدثـــوا عـــن حنانهـــا وعطائها وقلبها. ونختم هذه الاستشهادات بقصيدة الشاعر القروي رشيد سليم الخـــورى تلك التي عنون لها بـــ(أمي) والتي يقول فيها :-

ولو عصفت رياح الهم عصفـــا ولو قصفت رعود الموت قصفا
ففي أذني عند النزع صـــــوت يحول لي عزيف الجن عزفـــا
فيطربني وذلك صوت أمي
ولو ملئت لي الجامات صبـــرا ولو جرعت حلو العيش مـــرا
ففى شفتى ينبوع عجيـــــب يحول لى كؤوس الخل خمـــرا
فيسكرنى وذلك ذكر أمى
ولو هجمت على قلبى البلايـــا وهدت سور آمالى الرزايـــــا
فإن بباب فردوسى ملاكـــــا يسل السيف فى وجه المنايـــا
فيحرسنى وذلك طيف أمى
ولو أنى رزئت بفقد مالـــــى وأصحابى وأشعارى الغوالى
فلى كنز ، وقاه الله ، اغلـــى من التاج المرصع باللآلـــــى
ألا وهو الحنان بصدر أمى
ولو بارب فى اليوم العظيـــم تلوت على حكمك بالجحيـــــم
فلى أمل بأن ستعود يومـــــا فتصفح فى جهنم عن أثيـــم
وقلبك يستحى من قلب أمى [1]

وإذا كان صوت الأم وذكرها وطيفها وصدرها الحنون وقلبها الطيب هو ما يمـــلأ حياة رشيد سليم الخورى بالسعادة والاطمئنان فإن شاعرة أخرى هى روحيـــه القليـــى صورت هذا المعنى فى قصيدتها التى أخذت العنوان نفسه "الأم" فالأم بسمتها وهدايتـــها وأنيتها ومرشدها فى حالك الظلمات ، وفى قلبها عطف الوجود ، وهى التى تمسح دمعها

(١) ديوان القروى : رشيد سليم الخورى ،الجمهوريه العربية الليبية ،وزاره الثقافة جـ١ صـ٢٣٦

إذا قست الحياة ، وهى التى تسهر على راحتها إذا مرضت ، ولو اســتطاعت لافتدتهــا بنفسها ، وتذرع فى نفسها الثقة بالله عز وجل. وتذكر الشاعرة أمــر الله تعــالى بــبر الوالدين وتعلن الشاعرة أنها لو لم يكن تعرف إلها يعبد لعبدت الأم فهى نــور الحيــاة ، لكنها مؤمنة عابدة لله تعالى ، ولذلك فهى طائعة لربها بارة بامها وهى عاجزة عن التعبــير عما تكنه نحو هذه الأم :-

من وحى قلبى من تألق ذاتـــــى ... من نبع وجدانى سرت دعواتـــى
ووقفت فى المحراب خاشعة وفـــى ... نجوى الدعاء همست فى السجدات
يارب صن أمى وسر سعادتـــــى ... يارب واحفظها بحق صلاتـــى
من ذا الذى ادعوه غيرك حافظـــا؟ ... أمى الحبيبة اجمل المنحـــات
هى بسمتى هى بهجتى هى مؤنسى ... وهدايتى فى احلك الظلمـــات
فى قلبها عطف الوجود بأســـره ... كم ذللت برضائها عقباتـــى
وبساعدين من الحنان تضمنـــى ... فأكاد اسمع لهفة الخفقـــات
تقسو الحياة فتمسح الدمع الـــذى ... قد سال منهلا على الوجنـــات
وتحيله بيد الحنان بشاشـــة ... تبدو كطيف النور فى القسمـــات
وإذا مرضت جفا الرقاد عيونهـــا ... وتوسلت لله بالعبـــرات
وتذرعت بالصبر وهو سلاحهـــا ... فى كل ساتحة من اللحظـــات
تدرى لواعج ما بنفسى من أســى ... وتحس بالإيحاء دون شكاتـــى
مهما أحاول أن أدارى لوعتـــى ... فشعور أمى نافذ اللمحـــات

وتعكس الشاعرة إيمان تلك الأم وهى تبثه فى نفس ابنتها فتعيد إلى نفسها السكينة والهدوء لإحساسها بأن مدبر الكون موجود يرعاها ويبارك خطواتها فى لوحـــه هادئــة فتقول

وإذا شكوت لها الحياة وما بهـــا ... ردت بإيمان وحلو أنـــــاة
إن الإله مدبر الكون الـــــذى ... يرعى الخلائق يمنح البركـــات

هو وحده يرعاك من عليائـــــه ويبارك الروحات والغدوات
فثقى بربك يا ابنتى لا تيأســـــى من رحمة الله العظيم الذات

وتتجه الشاعرة بالخطاب إلى ربها، إلى رب العزة ،إلى من وهب الحياة فى صـــــورة الأمومة الممزوجة بالعطف والرحمة ، ووصى بها فى محكم القرآن ، إنها تنفذ أمر الله تعـــالى ، فهى نفديها بروحها وتبذل ذاتها لهذا الفداء ، وهى تصونها فى مقلتيها خوفا عليها مـــن الردى، وهى تطيعها فى الجهر والسر ، وهى من شده حبها لهذه الأم ، لو لم تعرف ربهـــا إنها يعبد لعبدت هذه الأم نورا للحياة ، *ولكنها عرفـــت ربهـــا وعبدتـــه وأطاعتـــه فى بر هذه الأم* :-

يا من وهبت لنا الحياة أمومة ممزوجة بالعطف والرحمات
وبمحكم القران توصى دائمـــا بالأم افديها وابذل ذاتـــــى
وأصونها فى مقلتى من الردى وأطيعها فى الجهر والخطوات
لو لم تكن ربى وسر هدايتـــى لعبدت أمى فهى نور حياتـــى
لكننى يارب مؤمنة بمـــــن خلق الحياة وأنزل الآيـــات

وفى نهاية القصيدة ، تتحدث الشاعرة عن خلق الأمومة فهو رحمة ومحبة كـــالغيث ينهل فوق الربوات، وهو النسيم الذى يسرى فينعش روضتها وتتجه إلى أمها معتـــذرة أنها مهما فعلت فلن تؤدى شكرها ومهما قالت فلن تستطيع أن تعبر عما فى نفسها:-

فمرى ألبب إرادة قدسيـــــــة أنا رهن ما تبدين من رغبـــات
أماه عفوا أن عجزت عن الوفا قد جل حبك عن مدى كلماتـــى [1]

وهكذا نرى شعراء العصر الحديـــث قـــد التفتـــوا إلى الأم فى حياتهـــا وبعـــد مماتها ، وصوروا تلك الأم عطفا وحنانا ، وهداية ونورا ، واعترفوا بجميلـــــها وبعظيـــم

(١) ديوان ك ابتهالات قلب روحيه القليبى صـــ٨٨ طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ســـنـــــه ١٩٦٩م

أثرها ، وسجلوا لحظات الغربة ، والابتعاد والشدة والضيق والمرض،كما سجلوا لحظات الفرحة والابتهاج • ولعل هذه الاستشهادات المتواصلة ترد على من قال إن الشـــاعر لم يعرف أمه إلا بعد الموت بقصيدة يرثيها بها •

بعد رحيل الأم :-

من الشعراء من رثى أمه بعد موتها بقصيدة أودع فيها حزنه وهمه وبكى عطفـــها وحنانها وفقدها، ثم سكت بعد ذلك، وهذا شان كثير من الشعراء ومن الشـــعراء مـــن ظلت الذكرى تؤرقه فيذكر أمه عاما بعد عام •

ومن هؤلاء الشعراء جميلة العلايلى عندما تذكرت أمها بعد عام من وفاتها وكـــان عيد الأم فى غيبتها مجسدا لهذا الفقد أيما تجسيد،فتهيج عاطفتها وتنشد قصيدتهـــا الـــتى تستهلها بقولها (العيد عاد ولم تعودى) وتروح تكرر هذه الجملة إحساسا بالفقد وتجسيدا لعدم العود • عاد عيد الأم ولم تعد هى، لم تعد الملهمة ، ولم تعد مـــن كـــانت تغـــذى أحلامها بالسعادة ،لم تعد من كانت الرى والشبع وبيت القصيد:-

العيد عاد ولم تعـــودى يا من ملأت بها وجودى
الطير يشدو فى الخمائل اين ملهمتى نشيـــــدى
وارى فؤادى لاهثـــــا مستنزفا دمع القصيـــد
وتغيب أحلامى التـــى أسعدتها فى كل عيـــد
العيد عاد ولم تعـــودى فأين ساقية الـــورود
بل أين من كانت تـــوا لى الطير من حب الحصيد
بل أين أين وأين يـــا أمى وكم لك من مزيـــد؟
إنى نظرت إلى الحيـــاة ولم أجد بيت القصيـــــد [1]

[1]) نبضات شاعرة صـــ٣١

وربما ظلت الأم ملهمة للشاعر بعد موتها يستجلى رأيها ، ويستلهم رشدها، ومـن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد أحمد العزب فى قصيدته "*دروس من سيدة وطنيـــة*" (٢) والتي يقول فيها:-

أمي
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمني
أن الألوان اقل !!
فالأبيض ليس قطيع الغيم
وليس الأخضر ثوب العشب
ولكن الألوان
تمارس هجرتها المختلفة
فى تنهيدات القلب المبتل
أمى
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمنى
أن الأنثى
تحتل أنوثتها الأحلى
حتى فى غطرسة المطر المنهل
وتعلمنى
أن الممنوع الألف
يظل على شفتيها

(٢) قصيده مخطوطة للشاعر محمد أحمد العزب

يحمل إغواءات اللاممنوع
يظل !!
أمى
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمنى
أن التصفيق لموعظة السياف
يمل يمل [١]

وهكذا نرى تكرار المقاطع " أمي ما زالت رغم رحيل الجسد تعلمني ، فإذا كانت الأم قد رحلت بجسدها ، فما زالت باقية فى تلافيف وحنايا عقل الشاعر وعاطفته تلهمه أن التصفيق لموعظة السياف يمل.

*بين الأم والأب :-

وأعط إياك النصف حيا وميتا .. وفضل عليه من كرامتها الأمّـــا
أقلك خفا إذا أقلتك مثقـــــلا .. وأرضعت الدولين واحتملت تمّـا
وألقتك عن جهد وألقاك لـــذة .. وضمت وشمت مثلما ضم أو شما [٢]
أبو العلاء المعرى

لقد حثنا الدين الحنيف على البر بالأم والأب ، وأولى الأم مزيدا من العنايـــة، وأوصـــى *الرسول صلى الله عليه وسلم بها ثلاث مرات : أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك* [٣].

---

[١] من قصائد مخطوطة بيد المؤلف

(٢) لزوم ما لا يلزم : المجلد الثاني صـــ٤١٦ دار صادر بيروت

(٣) الكامل للمبرد صـــ١٩٨جـــ١ طبعه بيروت

ومن طريف ما يحكى عن معاملة الابن لأمه وأبيه ، ما رواه المبرد فى كتابه الكـامل (٠٠٠٠حدثنى شيخ من الأزد ثقة عن رجل منهم انه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعـو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تيمية ٠ وسمع رجل يطوف بالبيت وهـو يدعو لأمه ، ولا يذكر أباه ، فعوتـب ، فقـال :هـذه ضعيفـة وأبى رجـل يحتـال لنفسه٠ [1] وهذا كلام قد يضحكنا من غفلة قائله وظنه أنه باستطاعة الأب أن يحتـال لنفسه فى الآخرة ، كما كان يحتال لنفسه فى الدنيا ، ومع ذلك فهو يدل أيضـا علـى تفضيل الأم على الأب فى الصورة الثانية ، وفى الصورة الأولى يفضل أباه على أمه. وقـد رأينا هذه الصورة وتلك فى رثاء الأم :ونجد بعـض الشـعراء يرتفـع بمنزلـة الأم فى شعره، ويؤكد على دورها فى حياته ، ومنزلتها التى تعلو على منزلة الأب على أنه عندمـا فقد أباه لم يشعر بيتم ، *ومع ذلك عندما ماتت الأم أحس عندها باليتم:-*

فقدت أبى طفلا فلم أدر ما الأسى وأفقدتها كهلا فهد الأسى عزمى [2]

وهى حالة خاصة به ، لأنه يشير إلى انه فقد أباه صغيرا، لم يكن على وعـى فلـم يحس ساعتها بخسارة *ولكنه عاش وكبر مع أمه وذاق حنانها ولذا أحـس بـاليتم ومن هنا يعقب الشاعر بعد هذا البيت بقوله:-*

سلونى أحدثكم عن اليتم بعدها فان اليتيم الكهل اعرف باليتـم

ومع ذلك فهو يوضح قيمتها عنده فهى الأب والابن والخال والعم:-

فان قلت يا أماه أغنانى اسمهـا عن الأب والأبناء والخال والعـم

ونجد كذلك الشيخ سيد قطب رحمه الله وهو يؤكد على دور الأم ، فقـد مـات الأب فقامت الأم بدورها خير قيام ، ولم يشعروا بمـوت الأب ، وعندمـا مـاتت الأم وساعتها فقط ،أحس الابن أنه فقد أباه وأمه ، وأن أباه قد مات اليوم بموت أمه

(١) الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧

(٢) المرجع السابق

" اليوم فقط مات أبي، واليوم فقط أصبحنا شتينا منثورا وإني لأضـــم اليـــوم إلى صدرى ابنكما وابنتيكما • أضمهم بشدة لأستوثق من الوحدة ، وأشعرهم بالرعايـــة ، ولكن هيهات هيهات

فأنا وهم بعدك أيتام يا أماه (٣)

(٣)) الرسالة : العدد ٣٨١ صـــ ١٦٠٢مقال تحت عنوان " أماه "

الفصل الثاني
صور فنية

صور فنية :-

حفلت قصيدة الرثاء فى العصر الحديث بالصور الفنية الجديدة غـــير التقليدية، فإذا كان الشاعر فى قصيدة الرثاء يعبر عـــن حزنـــه بصـــورة واضحة وصريحة، بالبكاء والدموع والحزن فإن بعض الشعراء قد ســـلكوا طرقا أخرى للتعبير عن حزنه.

* ***مشاركة الكون للشاعر في أحزانه :-***

لقد طلبت الخنساء من بنى سليم بكاء فارسهم :-

بنى سليم إلا تبكون فارسكم
خلا عليكم أمورا ذات أمراس [١]

والشاعر في قصيدة الرثاء في العصر الحديث يطلب من الكـــون أن يكون حزينا، ولكنه لا يطلب ذلك بصورة مباشرة كما فعلت الخنساء، إنـــه يستنكر أن تموت أمه والناس جامدون صامتون، والكون يسير كمـــا هـــو والشمس تشرق كما هي. وقد عبر عن ذلك الشاعر محمد العزب في رثـــاء أمه وهو يسوق الخبر في مطلع القصيدة بكلمات موجزة "***أمي مـــاتت***" وهذه الحقيقة التى ساقها توجب من وجهة نظر الشاعر أن يحزن الكـــون كله من حوله، فيا لهول ما رأى الشاعر، إنه يحدق فى عيون الناس فـــلا يبصر حزنا. إنه لا ينظر ولا يتأمل ولكنه يحدق ويدقق، إنه يرجع البصـــر

---

[١] ديوان الخنساء صـــ١٤٨

كرتين غير مصدق أن تكون الناس بهذه القسوة، فما أقسى تلك العيون التي لا تتعاطف مع بعضها فتبكى أحزان الناس، وحمائم الجـــارة تمضـــى ولا تلوى على شئ، وهو يمضغ تلك

الكلمات الذابلة التي فقدت معناها " ماتت ... متنا " والناس يســـمعون ولا يتأثرون ولا يتعاطفون، وهـ يتمتم شيخ ثلجي الإحساس: أجل يرحمـــها الله، ويتعجب الشاعر من برودة المشاعر وجمود الأحاسيس، وينتقل إلـــى مرحلة أخرى هى استجداء هذا التعاطف من الآخرين، حتـــى ولـــو كـــان تعاطفا مزيفا، طالما اختفت العاطفة الحقيقية بين بنى البشر .

فلتكن كلمات المجاملة الزائفة "يا شيخ تألم لى " تعاطف معى، تجاوب مع أحزاني، فإن لم تستطع فتظاهر بهذا، إن لم يكن من قلبك فلتكن كلمـــة من شفتيك وليست من قلبك وصميم وجدانك"صعد حتى من شفتيك الأه" ثـم يدين الشاعر روح العصر الجامدة الخالية من التعاطف " ما أقسى قلبـك ما أقساه، ويعود الشاعر من دفن الأم وهو منفصل عن الكون غارق فـــى أحزانه، نوافذه وحدها غارقة فى ليل مصلوب أقتم، ولكن نوافذ الجـــارات راقصة لا تحس بمأساة الشاعر، نوافذ الجارات راقصة بســـتائر بيضـــاء يلاعبها الريح، وقد هم الشاعر أن يصرخ فى تلك النوافذ طالبا منها بعض التعاطف، ولكن تجربته السابقة مع هذا الشيخ الثلجي الإحســـاس جعلتـــه يحجم، كاد يصيح فى تلك الستائر الراقصـــة :- ألا تبصـــرن ســـتائرنا سوداء ؟ ألا ترون ما نحن فيه من حزن ؟ بعضا من حزن، فالبيت جريـح.

ويصرخ الشاعر فى نهاية قصيدته، رافضا هـذا الجمـود، وذاك الخـواء العاطفي والتباعد والتنافر فهو يبدو فى زحمة كل الناس وحيدا، بين بنـــى البشر، الكل سيلقى هذا المصير، نحن لسنا بدعا في هذا الأمر،الكل يباب، الكل يباب

" أمى ماتت " !!

لكن حمائم جارتنا تمضى عنى

مثنى مثنى

وأنا أتحسى كلمات ذابلة الوجه بلا معنى !!

ماتت ... متنا !!

ويتمتم شيخ ثلجى الإحساس :

أجل .. يرحمها الله !!

يا شيخ تألم لى

صعّد حتى من شفتيك الآه !!

ما أقسى قلبك .. ما أقساه !!

ونعود مع الشفق الغارب

أطلال جدار منهار !!

ضيعنا الكنز وعدنا نبكى ك الأطفال !!

الأفق بليد !!

والليل الجاثم فوق الأرض وفى أحشائى آلف بليد !!

يا عجبالى ...

إني أبدو فى زحمة كل الناس على الدرب وحيد !!
في قلبي الذابل من همس الظلمات الغائمة فحيح !!
وصدى من هول المأساة ذبيح !!
وتلوح نوافذنا غرقى فى ليل مصل وب أقتم !!
ليل تتلوى فيه بلا نبض أبدا روح المأتم !!
لكن نوافذ بيت الجارات هناك ...
ترقص ذهلى ...
بستائرهن البيضاء اللاعبة على صدر الريح !!
فأكاد أصيح :
يا كل ستائرهن ألا تبصرن ستائرنا سوداء ؟
بعضا من حزن ....
فالبيت المطرق فى حضن المأساة النازفة جريح !!
هل نرقص فى أوج المأساة ؟؟
لكن الريح .. وعرس الريح ...
ونوافذ بيت الجارات ...
ترقص ذهلى !!
وكأن علينا قد كتبت مأساة الموت !!
وكأن عليهم أن يحيوا ليزفوا أعراس الموت !!
يا كل نوافذ قريتنا !!
يا كل نوافذ عالمنا !!

أبدا لن تفتح نافذة بعد الصيحة !!

الكل يباب

الكل يباب [١]

ونلمح من قول الشاعر :

إنى أبدو فى زحمة كل الناس وحيد

عمق المأساة التى نعيشها فى هذا العصر، بعد أن اختفى التعاطف مع الآخرين، وسرت البرودة فى أعماق العلاقات الإنسانية، وقد وظف مأساته لمناقشة هذه الظاهرة والتأكيد على ضرورة التعاطف فأنا اليوم وأنت فـــي الغد، كل نوافذ العالم حتما إلى فناء .

**** التشخيص :-***

وهو ملمح أخر في قصيدة الرثاء قامت به الشاعرة نازك الملائكة في رثاء أمها، وكما تقول هي تبرير ذلك " قد يكون الشعر بالنســبة للإنســان السعيد ترفا ذهنيا محضا، غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة، وقد كــانت القصائد الثلاث التالية محاولة للتعزى لجأت إليها على إثر وفاة أمي فـــي ظروف محزنة، عانيت منها معاناة خاصة، ولم أجد لألمي منفـــذا أخـــيرا غير أن أحبه وأغنى له) [١] وقد شخصت الشاعرة هذا الحـــزن وغنـــت

---

[١] الإعمال الكاملة : شعر : دكتور محمد أحمد العزب صـــ٦١٧

[١] ديوان نازك الملائكة : المجلد الثاني صـــ٣,٩

له،وجعلته مرهفا هادئا حزينا خجولا،يجرحه النوح ويضنيه العويل.هو فـي حاجة إلى الصمت والسكون.والتشخيص ليس خاصا بقصيدة الرثاء عنـــد نازك الملائكة،ولكنها في قصائد أخرى(تصور الربيع شيخا مرحا "ذا ثيلب خضر ووجه بديع يناديه عشاق الربيع أن ينـــهض مـــن غفوتـــه ليجـــوب الحقول فيمسحها بخضرته ونضرته [٢] وليس التشخيص هو الجديد عنـــد الشاعرة، وإنما تشخيص الحزن في صورة طفل صغير حزين، وقد كـــان هذا التشخيص مصدر إلهام للشعراء. بعد ذلك (فقد شاعت هذه الصـــورة عند كثير من الشعراء بعد ظهور قصيدة نازك، وأصبح الحـــزن طفـلا، والحب طفلا، وما أكثر القصائد التي كتبها شعراؤنا واستخدموا فيها هـــذه الصورة، ومن هذه القصائد قصيدة معروفة لصلاح عبد الصبور ... وهـــي قصيدة"طفل " وفيها يصور صلاح عبد الصبور قصة عاطفية انتهت إلـــى الفشل،ويختار لهذه العاطفة المنتهية صورة "***طفل ميت*** " ويبنى قصيدتـــه البديعة كلها " على هذا المعنى، وأغلب الظن أن أصل الصورة عند صلاح عبد الصبور هو طفل نازك الملائكة، وقد تأثر بها صلاح واستخدمها بعـد ذلك بطريقته الشعرية الخاصة [١]

---

[٢] قوافى الحب والشجن:كتاب العربي الثانى والأربعون٥ أكتوبر ٢...م صـــ١٨

[١] ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء : رجاء النقاش صـــ٢.. دار سعاد الصباح الطبعة الأولى سنه ١٩٩٢م

الرثاء والتصنيع :-

قد يفجع الإنسان عندما يوازن بين قصيدة المتنبي في رثـــاء والـــدة سيف الدولة وقصيدة الشاعر في جدته، ليكتشف الجودة الفنية في القصيـــدة الأولى أعلى من القصيدة الثانية "فمرثيته في جدته لم تصل فـــي نضجـــها الفنى إلى ما كانت عليه فى والدة سيف الدولة فلم يهتم الشـــاعر بصنعتـــه الفنية فى مرثيته الذاتية قدر اهتمامه بمرثيته لأم سيف الدولة) [٢] وأقول قـد يفجع الإنسان عند الموازنة بين القصيدتين لأن الأمر المتوقع هـــو إجـــادة المتنبي في رثاء القريب أكثر من إجادته في رثاء الغرباء، نتوقـــع إجـــادة المتنبي في شعره (في رثاء قريب له، أو فى رثاء من جمعته به صداقـــة وطيدة، وكانت له معه ذكريات استظل فيها بالسعادة، ونعم بآثار الصداقة . وكما قلنا فإن جدة المتنبي هي التي حظيت دون أقربائه بذكرها في شـــعره راثيا لها ومتفجعا عند موتها، فقد كان يحبها وكان حريصا على لقائها بعـــد طول غياب) [١]

والرثاء يتسع للحقيقة وحديث العقل أكثر من حديث الخيال [٢]

وقد قلت الصور البيانيـــة عنـــد المتنبـــي عندمـــا ســـيطر الحـــزن عليه (وواضح أن الصورة البيانية قد قلت بصورة ملحوظة فقدكان الحزن

---

[٢] صورة المرأة في الشعر العباسي د على أبو زيد صـــ٣١٢ دار المعارف سنه ١٩٨٣م

[١] الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي د /طه أبو كريشة صـــ١٥٧ الطبعة الأولى سنه ١٩٧٨م

[٢] المرجع السابق صـــ١٥٩

صادقا . ولذلك كان التعبير أقرب إلى الواقع وإلى البساطة لأنه أبلغ مـــن كل خيال، ومع ذلك فإنه حين فرغ من سرد هذا الواقع وهدأت انفعالاتـــه نراه يعود إلى التصوير البياني....) [٢]

وعباس للعقاد يشير إلى الصحيح والزائف من الشعر، وقـــارن بيـــن قصيدة ابن الرومى فى رثاء ولده محمد وبين قصيدة ابن نباتة فـــى رثـــاء ابنه ***واصفا شـــعر ابـــن نباتـــة بـــالزائف لوجـــود التوريـــة والتلاعـــب بالألفاظ وذلك فى قوله :-***

قولوا فلان قد جفت أفكـــاره مخايل للخير مرجـــــوه
هيهات نظم الشعر منه بعدما سكن التراب وليده وحبيبه

وهو يصنع تورية بقوله " وليده وحبيبه " إشارة بـــالوليد إلـــى لقـــب البحترى وحبيبه إلى لقب أبى تمام . مشيرا إلى أن مثل هذه المحسنات فـــى الرثاء يمزج فيها الشاعر بيـــن ألـــم الثكـــل وعبـــث التوريـــة والتنميـــق (وأنكر منها ما أنكر من رجل أذهب اليه لأعزيـــه فـــى ولـــده يســـتقبل المعزين بأكل النار واللعب بالبيض والحجر وغير ذلك من ألاعيب الحواة، وأنكر منها ما أنكره من رجل يزوق وسائل النعي أو يكتبها على دعـــوات الأفراح، ويخيل إلى أن ابن بناتة هذا كان يتربص بابنه الموت ليلعب فـــى مأتمه هذا اللعب الصبياني العقيم) [١] .

---

[٢] المرجع السابق صـــ١٦١

[١] ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد صـــ١١. بيروت

وقد يمتلك الشاعر القدرة على هذا التصنيع والتلوين، ولا يكون على حساب تجربته، والمهم هو هل أحسسنا بهذا التصنع أم لا ؟ والذى لا شك فيه أن شيئا من هذا التصنع الذى يصل إلى حد التكلف قد جاء فى قصيدة الرثاء في العصر الحديث، وهو تكلف نحسه ونلمسه فى القصيدة .

فمن ***ذلك :- قول الشاعر :-***

هي الأم سر لست تعرف كنهه وإن خلتها في صورة الدم واللحم
يقولون فانظر رسمها بعد موتها فقلت لهم في الرمس أمي لا الرسم (٢)

فنحن نرى الشاعر قد جاء بالرمس في مقابل الرسم ليجانس بين الكلمتين،والتصنع أو اللعب بالألفاظ ظاهر في البيت كله، وما رأينا أحدا في الدنيا يعزى إنسانا فيقول له إن الصورة والنظر إليها تغنى عن الأصل، عندك صورتها ففيها الغناء، ولكن الشاعر أتى بالبيت كله تكلفا ولعبا بالألفاظ وقد أحسسنا بهذا التصنع والتكلف، لا لوجود الجناس وتكلفه، ولكن لأن الشاعر لم يمتلك القدرة على توظيف هذا الجناس فى مكانه بحيث يبدو طبيعيا في موضعه لا نحس بقلقه،وقد جاء البديع في قصائد شعراء آخرين، ومع ذلك لم يأت بهذا التكلف، ***ومن هذا القبيل قول الشاعر :-***

يا من نعمت ببرها وحنانها ووجدتها في الحر ظلا ساجيا

---

(٢) الرسالة : صـ٢,٢٧ من السنه الثالثة سنة سنه ١٩٣٥م المجلد الثاني العدد ١٢٨

لما اختفى مصباح وجهك أظلمت في عينيَّ الدنيا وضقت بمابيا
أشهى الطعام أراه مرا في فمي أنكرت أيامى وعفت حياتيا (١)

وكذلك قول الشاعر :-

إذا ضحكت زهوا إلى سماؤها بكيت الندى في الأرض والبأس والحزما (٢)

فمع وجود هذا الطباق عند الشاعرين في "***الحر والظل***" و" مصباح وجهك أظلمت "، وأشهى الطعام مرا، وضحكت وبكيت، فإن هذا الطبـــاق وظف لرسم صورة الشاعر قبل موت أمه وبعد موتها فأدّى وظيفتـــه دون قلق أو تكلف .

**** المعارضة والتصنع :-***

من شعراء العصر الحديث من رثى أمه بقصيدة ما، فراح يعـــارض شاعرا آخر سبقه في هذا المجال .وعلى سبيل المثال، يحمل الـــبرق إلـــى الشاعر أحمد شوقي في منفاه نبأ وفاة أمه، فيحزن عليـــها حزنـــا شـــديدا ويرثيها ويبكيها بقصيدة اتكأ فيها على المتنبي معارضا إياه . والمفـــروض أن تستغرق الشاعر فى رثاء أمه تجربته تماما وينفعل بـــها فتـــأتي قصيدته من وهج هذه التجربة، ولكنه قـــد (يســـتوحى ذاكرتـــه وينتفـــع بمخزوناتها فهو يحصر نفسه في عمله الأدبي – بين تجربته الطارئة وبين

(١) ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

(٢) ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٢

تراثه الذي يتكون من أخلاط ويتجمع من أشتات .. ينساب من بين طوايا ذاكرته استجابة لحاجته الطارئة دون أن يعرف من أين يأتيه ولا أن يدرى مصدره [١] . ولكننا نشك آن يقف الشاعر في معارضته عند هذا التيار الهادئ الذي ينساب من بين طوايا وتلافيف الذاكرة، استجابة لتلك الحاجة الطارئة دون وعى من الشاعر أو إدراك. نشك في إخلاص الشاعر لتجربته ومعاناته لها وهو مشغول بالمعارضة ومشغول بالتقليد، إلا إذا وقف المعارض أمام البحر والقافية والموضوع فقط ولم ينشغل بالقصيدة برمتها ولا بمعانيها ولا بمعانيها ولا بطريقة عرضها والبناء الفنى لها ***كما فعل عزيز أباظة في رثاء زوجه عندما قال :-***

ذكرتك عند كل جليل أمـــر وكل يسيرة فبكيت نفســـي
إذا سكب الصباح فأنت همي وإن سكن المساء فأنت أنسى
جمعت على الهوى طرفي نهاري كأني لم أرع بنواك أمسى [٢]

وقد عارض بتلك القصيدة البحتري في وصف إيوان كسري :-

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس [٣]

---

[١] المعارضة فى الأدب العربي د / إبراهيم عوضين صـــ٦٤
[٢] أنات حائرة : عزيز أباظة صـــ٣٢
[٣] ديوان البحتري جـــ٢ صـــ١١٥٢

ومع ذلك لم يتعد تأثر الشاعر بالبحتري . الوزن والقافية ولـم يؤثـر على تجربته ولا عاطفته ولا قصيدته - وقد عارض شوقي المتنبي فمـــاذا فعل ؟

لقد ترسم شـــوقى خطـــى المتنبـــى فـــى هـــذه القصيـــدة خطـــوة (ويبدو أن شوقي أحس حين وصله نعى أمه بالشبه الكبير بيـــن ظروفـــه وظروف المتنبى، فكل منهما شاعر يقيم بعيدا عن وطنه وعـــن أســـرته، وكما خلف المتنبى جدةً عجوزا فى الكوفة خلف شوقى فـــى مصـــر أمـــا مريضة، وإذا كان فرح جدة المتنبى بعودة حفيدهـــا أكـــبر مـــن احتمـــال أعصابها الخائرة، فإن أم شوقى لما بلغها إعلان الهدنة وتوقعـــت عـــودة ولدها طغى عليها الفرح ولم تقو على احتماله فحمت وماتت) [١]

ومن هنا فقد عارض شوقى المتنبى لا أقول فى قصيدة ولكن فى كـل بيت من أبيات قصيدته حتى لتكاد الألفاظ فى كل بيت تتشابه .

---

[١] المعارضة في شعر شوقي د / إبراهيم عوضين الطبعة الأولى سنه ١٩٨٢ صـــ ١٧٩

فإذا بدأ المتنبى قصيدته بقوله :-

ألا لا أرى الأحداث حمدا ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

بدأ شوقى قصيدته بالطريقة نفسها :-

إلى الله من مطعونة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

قال شوقى :-

لك الله من مطعونة بقنا النوى شهيدة حرب لم تقارف لها إثما

وإذا قال المتنبى :-

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى

قال شوقى :-

إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى سبيل يدين العالمون بها قدما

وإذا قال المتنبى :-

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

قال شوقى :-

زجرت تصاريف الزمان فما يقع لى اليوم منها كان أمس لى وهما

(ويذكر المتنبى أثر كتابه فى نفس جدته فتحس الصدق فى تصويره واستقبالها للكتاب ودهشتها التى جعلتها تكرر النظر المرة تلو المرة

متفحصة خط حفيدها ولفظه وكأنها تستمد من ذلك ما يمنحها الطمأنينة، ثـم تعود فتلثمه بفيها وتضعه فوق عينيها، ويتكرر المشهد حتى يظـــهر أثـر المداد فى وجهها. هذه الصورة الحية ما نفخ فيها الحياة إلا صدق الشـــاعر فى عاطفته وواقعيته فى تعبيره . أخذ هذه الصورة شوقى فذكر أثر البشـير فى نفس أمه بحيث لا يكاد يشعرك بأنها فهمت عنه ما ألقى إليها من أنباء، ***فالبشير سقاها النبأ وهى ذاهلة باكية فسقطت بين يديه :-***

سقاها بشيري وهى تبكى صبابة .فلم يقو مغناها على صوبه رسما [1]

وإنما جمدّ هذه الصورة لدى شوقى خلوه من العاطفة التـــى تحقـق للتجربة الحياة . ***والمتنبى يتحسر على مـوت جدتـه فـى غيبتـه دن أن يودعها ولا يشيعها حتى قبرها فيقول :-***

وما انسدت الدنيا على لضيقها ولكن طرفا لا أراك به أعمـــى
فوا أسفى ألا أكب مقبـــــلا لرأسك والصدر الذى ملئا حزما

فيترسم شوقي خطاه، ***ويتأسف لموت أمه وحيـدة دون أن يشـيعها هـو وأولاده فيقول :-***

فيا حسرتا ألا تراهم أهلـــة إذا أقصر البدر التمام مضوا قدما
رياحين في أنف الولى ومالها عدو تراهم في معاطسه رغمـا

---

[1] المعارضة في شعر شوقي :صـــ١٨١

وألا يطوفوا خشعا حول نعشها ولا يشبعوا الركن استلاما ولا لثما

وإذا افتخر المتنبي بنفسه فى قصيدة الرثاء فقال :-

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكمـــا
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدا إلا لمكرمة طعمـــــا
يقولون لى :ما أنت ؟ فىكل بلدة وما تبتغى؟ ما ابتغى جل أن يسمى

قال شوقي :-

وكنت إذا هذى السماء تخايلت تواضعت لكن بعدما فتها نجمـــا
أتيت به لم ينظم الشعر مثلـــه وجئت لأخلاق الكرام به نظمـــــا
ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما

ومن هنا فقد جاءت قصيدة الرثاء عند شوقي وقد خلت من العاطفـــة ولم يحلق فيها بل كان مقلدا للمتنبي، (وأقدم على نظم القصيـــدة معتمـــدا على النموذج الذي يحاكيه، ظنا منه أن هذا يكفى في إضفاء الشـــاعرية على ما ينظم، بينما هو يضيع ما يعن في ثنايا ذلك من نبضة قـــد تـــأتى مصادفة وهكذا تقضى المعارضة على الـــروح الشـــاعرة حيـــن تســـتبد بالشاعر ويفقد شخصيته في نموذجه، والفارق كبير بين شـــاعر يـــترك الزمام لعاطفته تندمج مع أفكاره، فتبرز أبيات الشاعر حية نابضة وبيـــن

شاعر ينزل المعركة مجردا من العاطفة، ثم يسلم نفســـه إلـــى نموذجـــه مترسما كل خطاه) [١]

ومن هنا فقد طغت المعارضة على قصيدة شوقي فخمدت العاطفة في قصيدة رثاء للأم كان من المفروض أن يحلق فيها إلى ذروة الإجادة

والتوفيق. ولا يتصور الإنسان شاعرا يأتيه خبر وفاه الام وهو فـــي غربته وحيدا منفيا فيروح يرثيها، فيبحث عن شاعر قديم مـــر بالتجربـــة نفسها فيحتذيه ويقيس على مثاله. وإنما الذي نتصوره أن شـــوقي ألجمـــه الحزن وأخر سته الفاجعة، فسكت زمنا حتى خمدت عاطفته فـــراح ينشـــد قصيدة في المناسبة محتذيا أستاذه المتنبي عوضاً عن عاطفته التي خمـــدت فى تلك الفترة التي سكت فيها. وهذا التصور إن صح -وأظنه صحيحـــا - كانت المقولة التي قدم بها أحمد الحوفى لقصيدة شوقي في رثاء أمه غـــير دقيقة وذلك في قوله (نظم شوقي هذه المرثية وهو في منفاه بالأندلس علـــى إثر إعلان الهدنة سنه ١٩١٨م إذ كان يعلل نفسه بالعودة إلى مصر ولقـــاء آله والسعادة برؤية أمه. ولكن البرق قطع عليه هذا الأمل حينما نعى إليـــه أمه فحزن أشد الحزن ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المرثية [١]

---

[١] المعارضة في سفر شوقي صـــ١٨٦

[١] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٢

فهذه ليست عاطفة الشاعر الكبير بعد ساعة من معرفته بخبر وفـــاة أمه، ولكن الأرجح والأقرب للقبول أنه نظمها بعـــد أن خمـــدت العاطفـــة وهدأت النفس فراح يتكأ على الآخرين .

الأوزان :-

الوزن : هو جوهر الشعر وأساسه، فهو أعظم أركان الشعر وأولاهـــا خصوصية،كما يقول ابن رشيق (١)

ومع الاتفاق على أهميه الوزن بالنسبة للشعر،فإن السؤال الذي يترتب على هذا هو : هل يختلف الوزن باختلاف المعنى ؟ وهـــل تحتـــاج كـــل عاطفة إلى لون معين من الموسيقى والوزن يضبط هذه العاطفة، أو تصاغ فيه هذه المعاني ؟

لقد أشار ابن العميد إلى هذه الصلـــة بيـــن المعنـــى وبيـــن الـــوزن الشعري، وبين أن من المعاني مـــا هـــو جـــاد أو حـــار، أو جيـــاش أو صـــاخب، فـــلا يـــؤدى إلا بنفـــس طويـــل ولا يلائمـــه إلا الأعـــاريض الطويلة، ومنها ما هو دقيق أو هادئ أو ماجن أو راقص فيجب أن يصـــاغ فى تفاعيل تناسبه.

ولأمر ما قالوا إن الرثاء يحسن جدا فى بحر الطويـــل، ولأمـــر مـــا شاعت الأوزان القصيرة عند المحدثين . ويعلق المرحوم الأستاذ طه احمـــد

(١) العمدة : جـــ١ صـــ١٣٤

إبراهيم على فكرة ابن العميد بقوله (ولست أدرى أهذه الفكرة من عند ابن العميد أم لها نواة وأصل من عهد الخليل بن احمد) [٢]

ويؤكد الأستاذ طه احمد إبراهيم على العلاقة بيـــن المعنـــى والنظـــم عندما يقول:فمن الأفكار ما هو جاد طويل النفس،له جلال ورهبة، ومثـــل هذه توضع في بحر له تفاعيل عدة تقبل ما يصب فيها من المعانى.فالرثـــاء والنظرات في الكون وأشعار الشكوى والتألم أحسن ما تكـــون فـــي بحـــر الطويل[١]

وينفى الدكتور إبراهيم أنيس هذه الصلة بين المعنى والوزن مؤكـــدا إمكانية وجود صلة بين حالة الشاعر وقت الإنشاء وبيـــن الـــوزن الـــذي يختاره، فاستعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التحيز أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه، فهم كانوا يمدحون ويفاخرون أو يتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم. ويشير إلى المعلقـات التي قيلت في موضوع واحد تقريبا ونظمت من الطويل والبسيط والســـريع والخفيف، ويؤكد على أن الاتفاق فـــي الموضـــوع لا يعنـــى بـــالضرورة الاشتراك في العاطفة، فالحالة النفسية للخنساء حين كانت ترثى أخاها غير النفسية التي تملكت أصحاب المراثي من القدماء فالمعول عليه هـــو حـــال الشاعر وقت الإنشاء، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعـــال

---

[٢] تاريخ الفقد الأدبى عند العرب صـــ. دار الحكمة بيروت

(٢)المرجع السابق صـــ١٣٥

النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفـــس وازديـــاد النبضـــات القلبية، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عـــادة إلا في صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد أبياتها عـــن عشـــرة.أمـــا تلـــك المراثي الطويلة فأغلب الظن أنها نظمت بعـــد أن هـــدأت ثـــورة الفـــزع واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر [٢]

وقد توصل صاحب كتاب "***رثاء الأبناء في الشعر العربي***" إلـــى إن فكرة الربط بين الموضوع وبين بحر معين فكرة خاطئة،ولاحظ من خـــلال الإحصائية التي قام بها إلى أن شعراء رثاء الأبناء نظموا قصائدهم علـــى مختلف البحور الشعرية،مع اختلاف النسب في ذلك،كما لاحظ من خـــلال الإحصاء أيضا أن مقولة الدكتور إبراهيم أنيس، إن الشعر وقت المصيبـــة والهلع يتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفس وازدياد النبضات القلبيـة. ومثل هذا الرثاء الذي قد ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عادة إلا فـــي صورة مقطوعة قصيرة، لاحظ أن النصوص تقول غيرذلك.[١]

ويربط الدكتور طه أبو كريشة بين حالـــة الشـــاعر وبيـــن الأوزان المخصوصة عندما يتحدث عن قصيدة المتنبي في وصف الحمـــى فيقـــول ويرتبط بالصياغة في القصيدة الحديث عن التشكيل الموسيقى لـــها، فمـــن ناحية الوزن نرى أن القصيدة من الوافر(مفاعلتن مفاعلتن مفـــاعل) فـــي

---

[٢] موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس صـــ الطبعة الخامسة

[١] رثاء الأبناء في الشعر العربي د/ عيسر صالح موسى. مكتبة المنار الطبعة الأول

شطر كل بيت منه، وبحر الوافر من البحور الوائبة المتحفـــزة إن صـــح التعبير، ومن هنا نجده أصلح البحور لكي يصور انفعالات القلق والضيـــق والتبرم تصويرا موسيقيا، إذ إن السرعة في تفاعيله تناسب تقلب انفعـــالات القلق والضيق والتبرم والضيق والتبرم تصويرا موسيقيا، إذ إن الســـــرعة في تفاعيله تناسب تقلب انفعالات القلق الشاكي وما يصحب ذلك من تململ وعدم استقرار [٢]

ويشير بعد ذلك إلى إمكانية التغيير في البحر ذاته بما يصيبـــــه مـــن زحافات قد يصور انفعاله، أو يقلـــل مـــن هـــذا الانفعـــال وذلـــك حيـــن يقول(ولذلك نرى المتنبي لا يأتى بالعصب في الأبيات التـــى لا يريـــد أن يصور فيها سرعة انفعاله فيلجـــأ إلـــي الموســـيقى البطيئـــة كمـــا تـــرى ذلك في قوله :-

يضيق الجلد عن نفسى وعنها فتوسعه بأنواع السقـــــام

حيث جاءت التفعيلة الثانية في الشطر الأول، والأولى فـــــي الشـــطر الثاني بدون عصب وذلك لأن نفسه يثقل عليه حين تضغط عليه الحمى،كما أنه يحس بوطأة الحمى على الجلد فتوسعه، وهذا يستلزم إبطاء في الحركـــة والتصوير ... أما الانفعال السريع الذي يستلزم موسيقى سريعة فإنه يلجـــأ إلى إدخال العصب في بعض التفاعيل لكي يحقق هذه السرعة [١]

---

[٢] في ميزان النقد الأدبي صـــ١٣٢ د طه أبو كريشة،القاهرة سنه ١٩٧٦م

(١)في ميزان النقد الأدبي د طه مصطفى أبو كريشة صـــ١٣٢

وهو يشير إلى شئ من الأهمية بمكان، إذ كيف يطوع البحر ليناسب السرعة والهدوء في الوقت نفسه، وهنا تأتي الزحافات والحذف في تفعيلات البيت أو يأتي الإيقاع الداخلي ليهدأ من سرعة الإيقاع أو يغير من حركته

ويشير الدكتور على على صبح في حديثه عن الوزن إلى أنه يكاد يجمع النقاد قديما وحديثا على أن الرثاء يتناسب معه البحر الممتد والوزن الطويل لأن الامتداد والطول يتفق مع شدة الحزن، ويرى أن كل ما يتصل بالحزن من الفشل والعجز والشعور بالضعف أمام القوة الخالقة والمصيرة للعالم، كل ذلك يلحق بالرثاء، لأن كثرة المادات تناسب الإعياء والاسترخاء الذي يحل بالجسم نتيجة الصدمة الطاغية ويتلاءم مع الفتور الذي يهلهل النفس ويحطم قواها فتلهث بأنفاس حائرة ممتدة ...ومع ذلك يلاحظ على ابن الرومي في الرثاء أنه لا يلتزم هذا المبدأ النقدي بل يخالفه أحيانا، وقد علل لذلك بأن عبقريته في التصوير تستطيع أن تشكل فى البحر الواحد إيقاعات مختلفة، يتناسب كل إيقاع مع معنى يناسبه [١]

ونخلص من أراء السابقين إلى أن المعول عليه ليس هو الموضوع الذي يتحدث فيه الشاعر، ولكن المعول عليه هو انفعال الشاعر بالحدث، ومدى شدة هذا الانفعال أو هدوئه، وذلك في قصيدة واحدة وفى موضوع واحد .

(٢)البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر د على على صبح صـ٢٤٤

ومع أن الموضوع هنا واحد وهو رثاء الأم، فقد لاحظـــت الدراســـة اختلاف الوزن من شاعر إلى أخر بل إن شوقي يبكى جدته بقصيدة مـــــن بحر الوافر، ***وقافيتها الناء، مطلعها :-***

خلقنا للحياة وللممـــــــــــات ومن هذين كل الحـــــادثات
ومن يولد يعش ويمت كأن لم يمر خيالـــــه بالكائنات [٢]

ويبكى والدته بقصيدة أخرى من بحر آخر وهو بحر الطويل وقافيتـــها الميم مطلعها:

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما أصاب سويداء الفؤاد وما أصمـــــي
من الهاتكات القلب أول وهلـــــــــة وما داخلت لحما ولا لا مست عظما [٣]

ليتناسب مع عاطفته صعودا وهبوطا. ولذلك ينبغي أن تـــدرس كـــل قصيدة على حده فالقصيدة تحكمها ظروفها، ولا تحكم القصيـــدة بقوانيـــن مسبقة لم تراع ظروف القصيدة . وقد نظم من بحر الطويل كل من الشاعر أحمد شوقي في رثاء والدته، معارضا المتنبي في رثاء جدته، وكذلك العقاد في قوله :-

لقد كذب الناعي وأنعم بكذبه .. فلا صدق الناعون يوما ولا هموا
فزعت لخطب الموت والموت واحد.. فكيف احتمالي فيك مرتين يا أم [١]

---

[٢] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٣٩٨
[٣] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٢
[١] ديوان العقاد جـــ٢ صـــ٩١٥ طبعه بيروت

وكذلك الشاعر محمد الهراوى :-

تكشفت الأحداث بعدك يا أمي .فيا طول طول ما أبقى من الحزن والهم [٢]

وكذلك ابن الرومي في رثاء أمه ومطلع القصيدة :-

أفيضا دما إن الرزايا لها قيـــم فليس كثيرا أن تجود لها بـــــدم
ولا تستريحا من بكاء إلى كرى فلا حمد ما لم تسعداني على السأم [٣]

وكذلك كشاجم في قوله :-

أبعد مصاب الأم ألف مضجعـــا وأوى إلى خفض من العيش أو ظل
سترضع عيني قبرها من دموعها بما كلفته من رضاعي ومن حملي [١]

ومن بحر الوافر تأتى قصيدة شوقي في رثاء جدته، وكذلك أبو فراس

الحمدانى في رثاء والدته :-

أيا أم الأسير سقاك غيث بكره منك ما لقي الأسير
أيا أم الأسير سقاك غيث تخير لا يقيم ولا يسير [٢]

وكذلك المعرى في رثاء والدته :-

سمعت نعيها صمي صمام وإن قال العواذل لا همـــام

---

[٢] الرسالة صـــ٢٢٧ من السنة الثالثة العددة ١٢٨
[٣] ديوان ابن الرومي جـــ٦ صـــ٢٢٩٩ .تحقيق د حسين قاسيا
[١] ديوان كشاجم : صـــ٣٢٨ تحقيق د النبوي عبد الواحد شعلان
[٢] ديوان أبي فراس .صـــ١٦٣ رواية ابن خالويه .دار صادر بيروت

وأمتنى إلى الأحـــداث أم يعز على أن صارت أمامي[٣]

ومن تفعيلات بحر الكامل جاءت قصائد الشعراء، ***خليل عبـــده مطـــران*** ***فى رثاء جدته :-***

يا ترب عصرك بيتي في رحمة المتعالى
حييت خير حيـــاة وألت خير مـــــــــال [٤]

وقصيدته في رثاء أمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظائم النعـــم
عشنا زمانا وهى قسمتنا وغناؤنا عن سائر القسم [٥]

وكذلك قصيدة الشاعر إبراهيم عبد الفتاح :-

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا قد كنت يوما من حياتي قاسيـــا
شيعت فيك حنان أمي للثرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا [١]

وكذلك قصيدة ابن سنان الخفاجى :-

أبكيك لو نهضت بحقك ادمع وأقول لو أن النوائب تسمع
لا يغبطن على البقاء مرزأ إن المودع إلفه لمـــــودع [٢]

---

[٣] شروح سقط الزند – القسم الرابع : السطر الثاني صـــ١٤١٣

[٤] ديوان الخليل جـــ٢ صـــ٥٥٤

[٥] ديوان الخليل جـــ٣ صـــ٢٤٧

[١] ومضات فكر ونبضات قلب : إبراهيم عبد الفتاح صـــ١١٤

وعلى أوزان بحر الخفيف جاءت قصيدة الشاعر فريد عين شوكة :-

لا تلمني على بكائي وغمى — أي صبر يعين في فقد أمي
أي كنز فقدته في نواهـــا — أي خسر أصابني أي غم [٣]

وكذلك جاءت قصيدة ابن سناء الملك :-

صح من دهرنا وفاء الحياء — فليطل منكما بكاء الوفاء
وليبن ما عقد تماه من الصبر — بأن تحلا وكاء البكاء[٤]

وتأتى قصيدة البردونى على تفعيلات بحر الرمل :-

تركتني ها هنا بين العذاب — ومضت يا طول حزني واكتئابي
تركتني للشقا وحدي هنا — واسترلحت وحدها بين التراب [٥]

*مقدمة قصيدة الرثاء :-

تنوعت مقدمة قصيدة الرثاء بالنسبة للأم وذلك حسب ظروف إنشاءها فقد يبدأ الشاعر بمقدمة تناسب الرثاء،يتحدث فيها عن الدهر ومصائبـه وأن المرء لا بد ميت، وكل الناس إلى هذا المصير. ويبدو هذا واضحـــا فـــي قصيدة أحمد شوقي في رثاء جدته، فهو لم يبدأ قصيدته بالحديث عن هـــذه

---

[٢] عصر الدول والإمارات صـــ٧٣٣ د شوقي ضيف
[٣] الرسالة السنة ١٥ سنة ١٩٤٧م عدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧
[٤] ديوان ابن سناء الملك :صـــ٦
[٥] ديوان عبد الله البر ودن المجلد الأول صـــ١٣٨

الجدة، ***وانما بدأها بمقدمة من سبعة أبيات تحدث فيها عن الحياة والموت وهو يقول في مطلعها :-***

خلقنا للحياة وللممـــــات ومن هذين كـل الحادثات
ومن يولد يعش ويمت كان لم يمر خياله بالكائنـــــات
ومهد المرء في أيدي الرواقي . كنعش المرء بيـن النائحات
وما سلم الوليد من اشتكـــاء فهل يخلو المعمر مـن أذاه
هي الدنيا قتال نحن فيـــه مقاصد للحسام وللقنـــاة
وكل الناس مدفوع إليـــه كما دفع الجبان إلى الثبات
نروع ما نروع ثم نرمـــى يسهم من يد المقدور آت [1]

هذا هو المقطع الأول من القصيدة، وهو المقدمة التـي سـاق فيـها الشاعر فكرته، ***وهى فكرة تتصل بالرثاء موضوع القصيـدة إلـى أن يصل إلى البيت الثامن الذي يخلص فيه للحديث عن جدته بقوله :-***

صلاة الله يا تمراز تجزى ثراك عن التلاوة والصلاة

سبعة أبيات يتحدث فيها الشاعر عن الحياة والمـوت، وأن الإنسـان يولد ويعيش ويموت، كأنه لم يولد، ولم يمر خيالـه بالكائنـات، ويعـرج الشاعر على تلك الحياة التي يعيشها الإنسان فيصفها بأنها قصيرة،ويصـل للتعبير عن قصر هذه الحياة بمهد المرء في أيدي الرواقي ونعش المـرء

[1]) ديوان شوقي جـ٢ صـ٣٩٨

بين النائحات، فالمسافة بينهما قصيرة قصيرة، ***وهى فكرة كثيرا ما تعاور الشـــعراء علـــى ابرازهـــا فـــي شـــعرهم، ومـــن هؤلاء محمد توفيق البكري عندما قال :-***

وما أذّن القوم لما أقاموا صلاة الجنازة يوم الوفاة
وأُذّن للطفل يوم الـولاد فهذا الأذان لتلك الصلاة [1]

ثم يعود شوق للتأكيد على أن الحياة لم يسلم من أذاها أحد، وإذا كـان الوليد لم يسلم من أذاها، فهل يسلم من عمّر فيها من هـذا الأذى ؟ فـهي الدنيا قتال ونحن غرض للسهام، وكلنا مدفوع لهذا القدر، نـروع ونرمـى بالسهام بيد القدر، ومن هنا يكون قد مهد للدخول في الحديـث عـن هـذا السهم الذي رمى به وهو فقد جدته، وشوقي يبدأ قصيدته في رثـاء أمـه بمقدمة تطول هذه المرة حتى تصل إلى أحد عشر مـن الأبيـات تتلوهـا خمسة أبيات يتحدث فيها عن نفسه مع الدهر، ليدخل في الموضوع بعدهـا مباشرة.

وهو يبدأ مقدمة القصيدة بقوله :-

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما أصاب سويداء الفؤاد وما أصمي
من الهاتكات القلب أول وهلـة وما داخلت لحما ولا لا مست عظما

---

[1] محمد توفيق البكري د / ماهر حسن فهمي صـ١٥٩

توارد والناعي فأوجست رنـــــة كلا ما على سمعي وفى كبدى كلما
فما هتفا حتى نزا الجنب وانـــزوى فيا ويح جنبي كم يسيل وكم يدمى
طوى الشرق نحو الغرب والماء للثرى إليّ ولم يركب بساطا ولا يمّـــا
أبان ولم ينبس وأدي ولم يفـــــه وأدمى وما داوى وأوهى وما دمـا
إذا طويت بالشهب والدهم شقـــة طوى الشهب أوجاب الغدافية الدهمـا

والشاعر في هذه الأبيات يبدأ فى إيـراد فلسـفته للمـوت والدهـر ومصائبه فيقول:-

ولم أر كالأحداث سهما إذا جرت ولا كالليالي راميا يبعد المرمـى
ولم أر حكما كالمقادير نافـــذا ولا كلقاء الموت من بينها حتمـا
إلى حيث أباء الفتى يذهب الفتـى سبيل يدين العالمون بها قدمـا
وما العيش إلا الجسم فى ظل روحه ولا الموت إلا الروح فارق الجسما
ولا خلد حتى تملأ الدهر حكمـــة على نزلاء الدهر بعدك أو علمـا

والشاعر فى هذه الأبيات يتحدث عن الليالي والأحداث وأثرهـا فـي الإنسان وأن الموت حتم والمقادير نافذة، والأبناء يسلكون طريق الآبـاء، منذ القدم طريق واحد معروف .

ثم يبدأ فى الحديث عن نفسه، أو على الأصح عن نفســه مـع هـذا الدهر، فقد خبر تصاريف الزمان، ولم يعـد يبـالى بـه كـان نجمـا أم رجما، ولم تعد تغره النعم ولا تؤثر فيه النقم :-

زجرت تصاريف الزمان فما يقـع لى اليوم منها كان بالأمس لى وهما
وقد رتّ للنعمان يوما وضـــده فما اغترت البؤسى ولا غرت النعمى

شربت الأسى مصروفة لو تعرضت بأنفاسها بالفم لم يستفق غمـــــــا
فأترع وناول يا زمان فإنمـــــــا نديمك سقراط الذى ابتلع السمـــــا
قتلتك حتى ما أبالى أدرت لـــــى بكأسك نجما أم أدرت بها رجمـــــا

وإلى هنا وبعد هذه المقدمة الطويلة والطويلة جدا، ***يتحدث عن أمـــه وموتها وتأثير الحدث في نفسه :-***

لك الله من مطعونة بقنا النوى .شهيدة حرب لم تقارف لها أثما [1]

وترسم الشاعرة وفاء وجدي فى مقدمة القصيـــدة مـــا قبـــل الحـــدث بلحظات،وهى تجسم لنا الموت بزائر مكروه، راح يتسلل، وراحت ساعات الليل تدق فى تثاقل، وهى تتعثر بين الدقائق والثواني، والأم تعانى سكرات الموت، وأهات وحشرجة وغيبوبة، وتسلل الموت فى وضح النـــهار فـــي الظهر، ولو علمت أن الظـــهر يخـــون، ***وأنـــه يشـــارك المـــوت تســـلله ويساعده لسدّت بظهرها كل ثقوب النور :-***

دقت ساعات الليل ثقيلات الخطوات
تتعثر بين دقائقنا وثوانينا
آهات ... حشرجة ... غيبوبة
لكن ما عن لنا أن يأتى زائرك المكروه
يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر

---

[1] ديوان شوقي جـــ٢صـــ٥٣٧

لو أدرى أن الظهر يخون
لسددت بقلبى كل ثقوب النور
لتشبثت بساعات الليل الظلماء [٢]

وهى مقدمة لا نستطيع أن نفصلها عن الحدث، بل هـــى بدايـــة لـــه ومختلطة به ومؤدية إليه، بل هى الحدث ذاته فى صورة مجسدة قصصيـة، شأن كثير من الصور فى شعر التفعيلة .

ومن القصائد التى بدأت بمقدمات أيضا، قصيدة نازك الملائكة عندمـا وجدت الألم يعتصرها ويكاد يفتتها ويقضى عليها،فلم تجد من وسيلة ســوى أن تجسد هذا الألم، وأن تصوره، وأن تغنى له، فبدأت قصيدتها بقولها

أفسحوا الدرب له للقادم الصافي الشعور
للغلام المرهف الحس السابح فى بحر أريج
ذي الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوج
إنه جاء إلينا عابرا خصب المروج
إنه أهدأ من ماء الغدير [١]

ومع هذه القصائد التي بدأت بمقدمات، فان قصائد كثيرة قد خلت من المقدمات ويبدأ الشاعر بالبكاء مباشرة، أو بذكـــر الحـــدث، أو بمخاطبـــة

---

[٢] الرؤية من فوق الجرح : وفاء وجدي صـــ٣١

[١] ديوان نازك الملائكة : المجلد الثاني صـــ٣,٩ دار العودة بيروت سنه١٩٨٦م

القـبر، ***فمثـلا قصيـدة الشـاعرة عائشـة التيموريـــه بـــدأت بمخاطبة القبر مباشرة :-***

يا قبر فأهنأ بالتي أحرزتهـــــا هي درّة في الدرج لاحت تسطع [٢]

في الوقت الذي يبدأ الشاعر حسن عبد الله القرشي برفضه أن تكـون أمه في القبر، ***فهي في عمق أعماقه وفى فؤاده لا في التراب :-***

في عمق أعماقي مكانك في فؤادي لا تغيبي
لا في التراب فأنت ومض مشارق وشذي طيوب [١]

ومن الشعراء من يفتتح قصيدته على مشهد يبكى فيه أمه، واللائمـون يلومونه وهو يرفض هذا اللوم فلقد فقد ما يستحق البكاء:-

لا تلمني على بكائي وغمى أي صبر يعين في فقد أمـــي
أي كنز فقدته في نواهـــا أي خسر أصابني، أي غرم [٢]

ومن الشعراء من يفتتح قصيدتـــه وهـــو يخـــاطب اليـــوم الـــذي مـــاتت فيه أمه، ***ويطلب منه أن يرحم فؤاده فقد كان يوما قاسيا لأنه شـــيع فيـــه أمه، ووضعها في قبرها ورجع مكلوم الجوانح دامي الفؤاد :-***

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا قد كنت يوما من حياتي قاسيا
شيعت فيك حنان أمي للثـرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا

---

[٢] حليه الطراز صـــ٣.
[١] ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني صـــ٢٤٣
[٢] الرسالة السنه١٥ سنه ١٩٤٧ العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

أغلى الكنوز دفنتها في حفرة ورجعت مكلوم الجوانح داميا [٣]

ومن الشعراء من يلقى بالخبر مباشرة فـي صـدر قصيدتـه وفـى مفتتحها، وذلك تجسيدا للحدث . ***وذلك كما في قصيدة الدكتـور محمـد العزب، حين يبدأها بقوله:-***

"أمي ماتت "

وأحدق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا
يا قسوة عين لا تبكى أحزان الناس
" أمي ماتت " [١]

فهي حقيقة لا تحتاج إلى تضخيم، إذ أنه أضخم حـدث بحقيقتـه، لا يحتاج إلى تكبير، فهو أكبر مصاب في الحقيقة، ومع ذلك، ومـع أن مـا يستتبعه وهو حزن الناس أجمعين هو أمر طبيعي أيضا فإن الشاعر يصنـع الدهشة من عدم حدوث الحزن من الناس .ومن الشعراء من بدأ قصيدتـه بـالحديث عـن حالـه بعـد وفـاة أمـه، فقـد تركتـه الأم بيـن العذاب، ***وخلّفته مع حزنه واكتئابه:***

تركني ها هنا بين العذاب ومضت يا طول حزني واكتئابي
تركتني للشقا وحدي هنـا واستراحت وحدها بين التراب [٢]

---

[٣] ومضات فكر ونبضات قلب صـ١١٤

(١)الأعمال الشعرية الكاملة . دار محمد أحمد العزب صـ٦١٣

وربما افتتح الشاعر قصيدتـــه بمخاطبـــة الام والدعـــاء لـــها والحديـــث عنها، ***مثلما فعل الشاعر خليل مطران في رثاء جدته :-***

يا ترب عصرك بيتي في رحمة المتعالـــــي [٣]

وفى قصيدته لأمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظائم النعم [٤]

وإذا كانت القصائد قد تنوعت في مقدمتها، فإن الثابت أن كل قصـــائد رثاء الأم لم تأت فيها المقدمة خارجة عن إطار الموضوع وهو الرثاء، بـل جاءت مناسبة له ومتحدثة عنه وملتصقة به، كالحديث عن حكمة المـــوت وفلسفته، والزمان والدهر وما يصنع بالإنسان، وهو ضـــرب علـــى وتـــر الحدث وليس ببعيد عنه.

*خاتمة قصيدة الرثاء :-

وإذا كان مفتح القصيدة وبدايتها يشهد فوران العاطفة عنـــد الشـــاعر ومبلغ تأزمه من الحدث وشده التياعه فيلقى بهذا كله متخففا معبرا عما فـــي داخله فإن الشاعر لا يصل إلى نهاية القصيدة وخاتمتـــها إلا وقـــد هـــدأ وتخفف من حمله، وعبر عما يعتمل في داخله ويريد أن يختم به قصيدتـــه فهل يختمها مسلما للقدر، ومسلما بوقوع الحدث فيصوغ أبيات الحكمة بـــأن

---

[٢] ديوان عبد الله البردوني صـــ١٣٨ من المجلد الأول

[٣] ديوان خليل مطران جـــ٢ صـــ٥٥٤

[٤] ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧

هذا هو سبيل الناس كلهم ؟ أم يختمها بالدعاء بعد أن استسلم لوقوع الحدث وصدق به ولم يعد أمامه إلا الدعاء ؟

فمن الشعراء الذين اختتموا قصائدهم بالدعاء الشاعر أحمد شـــوقي عندما ختم قصيدته في رثاء جدته بالدعاء للنعش لاحبّا فيه بل لأجل جدته ويمدحها بجميل الصفات، فهي سماء المكرمات، وهى كوكب ســـقط فـــي التراب وهى أخلاق طيبة دفنت في القبر، ومن ثم فقد راح ينظر إلى القـبر ويغضى ذاكرا حياة تلك الجدة فإذا هي قد مرت سريعا كأنها لحظات :-

لعا للنعش لاحبّا ولكـــــن لأجلك يا سماء المكرمات
ولا خانته أيدي حامليـــــه وإن ساروا بصبري والأناة
فلم أر قبله المريخ ملقـــى ولم أسمع بدفن النيـــــرات
هناك وقفـــت أسألك اتئادا وأمسك بالصفاة وبالصفات
وأنظر في ترابك ثم أغضى كما يغضى الأبي على القذاة
وأذكر من حياتك ما تقضى فكان من الغداة إلى الغداة [1]

ومن الشعراء الذين ختموا قصيدتهم بالدعاء أيضا، الشاعر حسن عبد الله القرشي، وذلك بعد أن يصور الحياة بأنها وهم كاذب، وبأننـــا نمشـــى والمنايا تسبقنا، ***نحلم ويعيدنا وهج الحقيقة لليأس والكوارث*** :-

هذى الحياة نعيش عالمها على وهم كـــــذوب

---

[1] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٧

هذى الحياة وثم مسبحنا على اللج الغضـــوب
نمشى وتسبقنا المنايا في المسالك والـــدروب
كم ننسج الحلم الجميل ولا نفكر في "***شعوب***"
ويعيدنا وهج الحقيقة من سنا الحلم القشيـــب
لليأس يعصف للشقاء وللكوارث والشحـــوب
رباه ثم وديعة في ظل برزخك العجيـــــب

حطها برحمتك القريبة أنت علام الغيوب [1] ومع وجود الدعاء في نـــهاية القصيدة، وهو يعنى أن الشاعر قد سلم بالقضاء ورضيت نفسه بـــأن أمـــه أصبحت في عالم الغيب، وأنها تستحق الدعاء في عـــالم الأمـــوات، فـــإن شعراء آخرين رفضوا الاستسلام لهذا الواقع ولم تهدأ نفوســـهم وســـيطر عليهم الحدث واختتموا قصائدهم بالبكاء والتحسر على هـــذه الأم، ومـــن الشعراء من فرغ من الأم والحديث عنها وبكائها ثم التفت إلى نفسه مفتخرا . ومن هؤلاء الشعراء الذين اختتموا قصائدهم بالفخر، الشاعر أحمد شـوقى فى بكاء أمه، فهو يخاطب تلك الأم فى نهاية القصيدة بأنها وإن كـــان قـــد فاتها مـــا كـــانت تأملـــه مـــن مواكـــب، فكفاهـــا هـــذا الشـــعر موكبـــا وحفاوة وتكريما، فهى أم نجيبـــة تضـــرب فـــى ذرى العليـــاء وشـــيمتها التواضع، مع أنها أنجبت أعظم شاعر، لم ينظم الشعر مثله أحـــد، وهـــو كالسحاب كرما والتبر نفاسة

---

[1] ديوان حسن عبد الله القرشي. المجلد الثاني صـــ٢٤٨

لئن فات ما أملته من مواكب فدونك هذا الحشد والموكب الضخما
رثيت به ذات التقى ونظمته لعنصره الأزكى وجوهره الأسمى
نمتك مناجيب العلا ونميتها . فلم تلحقى بنتا ولم تسبقى أمـــــا
وكنت إذا هذى السماء تخايلت تواضعت لكن بعد ما فتها نجمـــا
أتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لأخلاق الكرام به نظمـــا
ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما [1]

ولعل نغمة الفخر هنا التى اختتم بها الشاعر قصيدته، جاءت نتيجـــة حتمية لشاعر فى الغربة، وفى النفى،وبعيد عن أهله وأصحابه فلا بد له أن يستمسك بشىء وسط ضياع كل شئ، ووسط غياب كل شـــئ، فـــهو فـــى النهاية لا بد أن يؤكد لنفسه هو أولا، أن الأم إذا كانت قـــد غـــابت فـــهو موجود، وأن ذاته وشاعريته ما زالت موجودة يفاخر بها ويعتز بها.

ولكن من الحق أن نقول إن أبا فراس الحمدانى قد ألـــم بـــالظروف نفسها وابتلى بالغربة والأسر وموت الأم ورثاها وهو بعيد عنها فى ظـــل هذه الظروف ومع ذلك لم يلجأ إلى الفخر لتأكيد ذاته وإنما ختـــم القصيـــدة وما زال يسيطر عليه الإحساس بالضياع، بضياع كل شئ بعد هذه الأم.

إلى من اشتكى ولمن أناجى إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأي دعاء داعية أوقـــــى بأي ضياء وجه استنيـــــر
بمن يستدفع القدر الموقـــى بمن يستنتج الأمر العسيـــر

[1] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٧

نسلى عنك أنا عن قليـــل إلى ما صرت فى الأخرى نسير[١]

وإن كان من الحق أيضا أن نذكر أن المتنبى قد عاش هذه الظـروف فـى موت جدته وهو غريب بعيد عن بلاده، وقد ختم قصيدته بـــالفخر، فـهل استطاع المتنبي أن يلملم جراحه وأن يتماسك وأن يشـــعر بذاتـه ويختـم القصيدة بالفخر، ولم يستطع ذلك أبو فراس ؟ وإذا صح ذلك فهل اسـتطاع شوقي أن يلملم جراحه، وأن يتماسك وأن يفاخر بنفسه فـــى مقـابل هـذا الضياع الذي يحس به، أم أنه كان مقلدا للمتنبي وهو يعارضه فقلـده فـى فخره وفى ختام قصيدته بالفخر ؟

ونرى شوقي فى هذا الفخر الذي ختم به قصيدتـه يلاحـق المتنبـي ويسير وراءه حتى ولو لم يكن ألمتنبي محقا فى ولوج ذلك الميدان [٢]

ومـن الشـعراء الذيـن ختمـوا قصيدتـــهم بـــالفخر أيضـــا عبد الله البرد ونى، ولعل ظروف الشاعر وقد كان مكفوف البصر، وكانت أمه هي التي تقوده وتطعمه وتسقيه وقد أحس بعدها بالضياع والتشتت فلجأ إلى الفخر ليؤكد ذاته ويثبت وجوده ومن هنا يختم قصيدته بقوله :-

---

(١) ديوان أبي فراس الحمدانى

(٢) مع ملاحظة أن الدراسة بررت لوجود هذا الفخر عند الشاعر الذى أحس فى غربته بضياع كل شئ فراح يؤكد ذاته بالفخر فى مقابلة هذا الضياع . ينظر المعارضة فى شعر شوقى . د / إبراهيم عوضين صـــ ١٨٤ مطبعة السعادة سنه ١٩٨٤م الطبعة الأولى

ها أنا يا أمي اليوم فتـــــى طائر الصيت بعيد في الشهـــاب
أملأ التاريخ لحنا وصـــــدى وتغنى في ربا الخلد ربابـــــى
فاسمعي يا أم صوتي وارقصي من وراء القبر كالحور الكعـــاب
ها أنا يا أم أرتيك وفـــــى شجو هذا الشعر شجوي وانتخابي [1]

ومن الشعراء الذين ختموا قصائدهم بالبكاء والتحسر والعـــودة إلـــى تذكر تلك الحياة السعيدة التي أصبحت ذكريات يستعيدها فى جلال ويجـــد فى تذكارها راحة، ***الشاعر إبراهيم عبد الفتاح وذلك حين يقول:-***

لك ذكريات أستعيد جلالها فأرى عطاءك كان فوق عطائيا
وأرى حياتك كلها مبذولـــــة عن طيب نفس كى تصون حياتيا
هى ذكريات من حنانك لم أزل أتلويها الفضل العظيم الباقيـــا
أجد ارتياح القلب فى تذكارها وكأن وجهك لا يزال تجاهيـــا
تمضى السنون وطيب ذكرك فى فمى وأراه أحلى ما يذوق لسانيـــا

ثم يتحدث بعد ذلك عن الأم بصفة عامة ذاكرا فضلها إلى أن يقول :-

ما من نبوغ يلفت الدنيا له إلا إليها ينتمي متناهيـــا
إن تلتمس سببا لرفعه أمـــة تبصر مقام الأمّ فيها عاليا [2]

وتنهى الشاعرة نازك الملائكة قصيدتها أو مرثيتـــها الثالثـــة لأمـــها بالاستسلام لهذا الحزن الذي شخصته، وغنت لـــه فـــي المرتبـــة الأولـــى

---

[1] ديوان عبد الله البردوني/ المجلد الأول صـــ١٣٨

[2] ومضات قلب صـــ١٦٦

والثانية، فهو كل ما تبقى لها ولذلك تهبه صلاة مـــن الدمـــوع، ***وتمنحـــه مسكنا دائما في المآقي وتهبه حبا أقوى من النسيان :-***

إنه كل ما تبقى لنا من وجه ضحكاتنا ورجع الأغاني
إن فيه نهاية الطرف الثاني لما هدم الردي من أمان
فوهبنا له صلاة من الأدمع خجلى مهموسة الألحان
ومنحناه مسكنا في مآقينا وحبا أقوى من النسيان [1]

ويوجه الشاعر محمد العزب إلى هذا المجتمع الذي يعيش فيه والـــذي سيطرت عليه الأنانية، وعـــدم التعـــاطف مـــع الآخريـــن، دعـــوة إلـــي التعاطف، وإلى الإحساس بالآخرين، ***فما عند الآخرين اليوم هو عنـــدك في الغد، والكل إلى هذا المصير :-***

ونوافذ بيت الجارات
ترقص ذهلى
وكأن علينا قد كتبت مأساة الموت
وكأن عليهم أن يحيوا ليزفوا أعراس الموت !!
يا كل نوافذ قريتنا
يا كل نوافذ عالمنا
أبدا لن تفتح نافذة بعد الصيحة
الكل بباب

---

[1] ديوان نازك الملائكة المجلد الثاني صـــ٣١٨

الكل ييباب [٢]

ويرفض الشاعر فريد عين شوكة البقاء بعد أمه، فهو لا يطيق الحيـاة بعدها ويطلب من الهلاك والردى أن يقبض روحه حتى يلحق بأمه :-

لا أطيق الحياة بعد نواهـــــا ، يا ليت يومها كان يومى
يا عوادي الردى فقدت رجائي فهلمى خذي الحياة هلمي [١]

ويختم العقاد قصيدته في رثاء أمه بالحديث عن هذه القفار التى تلاقى فيها الأهل وطاب المقـــام لـــهم، ويعلـــن أنـــه كـــان يخـــاف الخطـــوب من أجل أمه، أما وقد فقد هذه الأم فإنه لم يعد يخاف الخطوب، وعلـــى أي شئ يخاف؟

فيا هولها من قفار تركت ويا شد ما قد عرت الرجامـــا
تلاقى ذوى ببطن الثرى فأنهم بحيث أقاموا مقامـــــــا
لأجلك كنت أخاف الخطوب فما الخوف بعدك إلا سلاما [٢]

ويستسلم الشاعر محمد الهراوى لدموعه وأحزانه ويختـــم بـــها قصيدته فيقول :-

سأخضع يا أمي لقلبي ومدمعي على رغم ما أسديت من نصحك الجم
وأبكيك بالقلب الذي تعرفينـــه وللدمع شأن غير ذلك في الحكـــم [٣]

---

[١] الأعمال الشعرية الكاملة / د محمد احمد الغزب صـــ٦١٧
[٢] الرسالة : السنه ١٥ سنه ١٩٤٧م المجلد الثاني العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧
[٣] ديوان العقاد جـــ٢صـــ٩١٥ طبعة بيروت

الخيال ورثاء الأم:-

تحتاج العاطفة القوية إلى خيال قـــوى يعلـــن عنـــها ويبرزهـــا ويوضحها. ومع ذلك إذا كانت هذه العاطفة مسرفة ومبالغـــة تحـــول الخيال إلىوهم. والعاطفة في رثاء الأم قوية (وإذا كانت المـــوأة ذات قرابة، فإن الصدق في العاطفة مما يفتح مجال القول، ويدنى الشـــاعر من العبارة المؤثرة الشجية، والصياغة في الرثاء ينبغـــــي أن تكـــون ملائمة لعاطفة الأسى والشجن، موحية بألفاظها وصورها البيانية عمـــا في النفس من ألم الفراق) [١]

والخيال بهذه الصورة يعنى الكوة التي نستطيع من خلالها تصويـــر الأشخاص والمعاني وتمثيلها شاخصة أمام من تخاطبه ونستثير مشاعره[٢]

ومن هنا فالخيال جوهر الأدب، وهو ليـــس زينـــة كزينـــة الحلـــي والرياش، وإن من أخطر الأشياء على الأديب أن يستعمله وشيا وتطريـــزا لأدبه، وأن يصبح كالأصداف التي تغر البصر ببريقها دون أن تفضي إلـــى رمز أو دلالة تؤديها [٣]

---

[١] الخيال الشعري عند أبى الطيب المتنبي : د طه أبو كريشه صـــ١٥٦ الطبعة الأولى سنة١٩٧٨م

[٢] النقد الأدبي : احمد أمين صـــ٢٧ الطبعة الرابعة مكتبه النهضة

[٣] في النقد الأدبي : د شوقي صيف صـــ١٧٣ دار المعارف الطبعة الثامنة

لقد أعاد الشعراء تشكيل اللغة وترتيبـــها لتتوافـق مـع عواطفـهم وأحساسيهم، أو فلتقل: لتستطيع هذه اللغة الجديدة، بهذا الترتيب الجديد نقـل تلك المشاعر والأحاسيس إلينا.

ومن تلك الصياغات فى قصيدة الرثاء :-

****الأساليب الإنشائية:-***

تصور الأساليب الإنشائية من استفهام حائر متخبط، ونداء للتجســيد والإحساس بعدم الفقد، والأمر والتعجب، تشـــكل هـذه الأســاليب التـي استخدمت في غير ما وضعت لها وأعاد الشاعر صياغتها ودلالتها مـــن جديد، جانبا مهما في التعبير في قصيدة رثاء الأم.

ومن هؤلاء الشعراء الذين استخدموا أسلوب الاستفهام الـذي خـرج عن معناه ليدل على حيرته من ناحية، وتعجبه من ناحية ثانية وإحساســه بالفقد،الشاعر فريد عين شوكة عندما ***يقـول*** : " لا تلمنـى علـى بكـائى وغمى، أى صبر يعين فى فقد أمى؟ أى كنز فقدته ؟ أي خسر أصـلبني أي غم ؟ وبعد تعداد هذه الخسائر الفادحة والإحساس بالفقد يلجأ إلـى البحـث عما فاته، في استفسارات واستفهامات الغرض منها تصويـــر مـا فقـده الشاعر بفقد أمه، أين منى دعاؤها، بركات تتوالى من السماء وتهمي ؟ أين منى سؤالها عن طعامي وشرابي وعن قيامي ونومي ؟ أين منـــى حنينـها للقائى؟ أين منى وداعها فى رحيلى بالأمانى التى تجدد عزمى؟ أين منـــى لقاؤها فى إيابى بالتهاليل حين أهتف باسمى ؟ أين منى صدق الفداء إذا ما

مسنى فى الحياة أيسر سقم ؟ أين منى نفس أسر إليها فرحتى أو شـــكايتى من ملم (١) وهذه الاستفهامات الحائرة التـــى تكشـــف عـــن حالـــة الفقـــد والضياع، ***عكستها أيضا أبيات الشاعرة جميلة العلايلى عندما تقول :-***

العيد عاد ولم تعـــودى فأين ساقيـــــة الورود
بل أين من كانت توالى الطير من حب الحصيد
بل أين. أين وأين يا أمى وكم لك من مـــــزيد ؟ (١)

وهى تعدد أيضا تلك الأيادى التى فقدتها بفقد أمها، وعندمـــا تنتقـــل الشاعرة إلى عنصر آخر تترك هذه الاستفسارات إلى صياغـــة أخـــرى. ***وتلفت أنظارنا الشاعرة وفاء وجدى إلى أن موت الأم فجّر فـــى ذهنـــها استفسارات عديدة وأسئلة حيرى عن هذه الأحزان ووجودها :-***

أجلت الأسئلة الحيرى
وجمعت الكلمات المتناثرة على الشفتين
كلمات تعييها الالأم
ترهقها أن اسأل كيف وأين
ويثير الصمت العاتى فى الأعماق سؤالا
لم هذا الحزن يعشش فينا ؟
لم هذا الحزن ؟ (٢)

---

(١) الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

(١) نبضات شاعرة : جميلة العلايلى صـــ٣٠

(٢) الرؤية من فوق الجرح : وفاء وجدى صـــ٣١

وموت الأم عند الشاعر خليل مطران جعله يلقى بهذه الأسئلة التـــى يعرف إجابتها سلفا وهو يريد أن يشعرنا أنه لم يعد شئيا بعد أمه، لقد تنـاثر وتلاشى،ولم يعد هناك من سبب يدعـــو إلـــى المجـــالدة والمكافحـــة فـــي الحياة، ***أو بذل القوة والسعى :-***

ماذا أنا ؟ ولمن مكافحتي ؟ وعلام بذلى قوتى ودمى ؟ (١)

ويشير عبد الله البردونى فى استفهامه إلى فقده لظلها الحـــاني، ***فقـــد أضحى بعيدا عنه بعد فقد هذه الأم:-***

أين منى ظلها الحاني وقد ذهبت عنى إلى غير إياب (٢)

وقد يلجأ الشاعر إلى استخدام النداء، نداء من هي غير موجودة، وقـد ماتت فينادى عليها عبورا بمرحلة الفقد وتأبيا عليها ورفضا لها.

وذلك واضح فى قصيدة الشاعر حسن عبد الله القرشي :-

مثواك يا أمـــــاه لا فى ظلمة الحدث الرهيب
ها نحن يا أماه أيـــ تام بمائدة الخطـــــوب
أماه هل تصغين ؟ ما عودتني صمت الغريب (٣)

وكذلك في قصيدة الشاعر عبد الله البردوني :-

---

(١) الديوان جـــ٣ صـــ٢٤٧

(٢) ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني صـــ٢٤٣

(٣) ديوان عبد الله البرد ونى : المجلد الأول صـــ١٣٨

آه يا أمي وأشواك الأســـى تلهب الأوجاع في قلبي المذاب
ها أنا يا أمي اليوم فتـــــي. طائر الصيت بعيد في الشهـــاب
فاسمعي يا أم صوتي وأرقصي. من وراء القبر كالحور الكعـــاب
ها أنا يا أم أرثيك وفـــــي. شجو هذا الشعر شجوي وانتحابي [٤]

وكذلك في قصيدة خليل مطران:-

واحرّ قلبا يا أميمـــة أن تمضى ويمضى السعد من أمم [١]

وفى قصيدة الشاعر محمد الهراوى :-

تكشفت الأحداث بعدك يـــا أمي فيا طول ما أبقى من الحزن والهم
الله يا أماه ما أنا بـــــــالذي تعود أن يقوى على الحادث الجهم
فإن قلت يا أماه أغناني اسمهـــا عن الأب والأبناء والخال والعـــم
سرى لي يا أماه طيفك في الكرى. فغاب خيـــال الأم عن ذروة الأم
سأخضع يأمى لقلبي ومدمعـــــى على رغم ما أسديت من نصحك الجم [٢]

وهذا هو العقاد يبكى أمه بقصيدة يخاطبها فيها مناديا عليها، *متأبيـــا على الغياب والفقد قائلا :-*

فراقك يا أماه لـــــم احتسب لـــــه بغتة أو نذيرا ترامى [٣]

---

[٤] ديوان عبد الله البرد ونى :المجلد الأول صـــ١٣٨
[١] ديوان خليل مطران : جـــ٣ صـــ٢٤٧
[٢] الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧
[٣] الأم فى الأدب : فتحي الابيارى صـــ٢٨

ولذلك ومن أجل التأكيد على وجود تلك الأم وحضورها رأينـــا هـــذا النداء الشجي يتخذ عنوانا لقصيدة الشاعر فريد عين شوكة "***أمي***" وقصيدة محمد الهراوى "***وأماه***" وقصيدة مختار الوكيل "يا أم" ويكتب الشيخ ســـيد قطب راثيا أمه في مقال تحت عنوان "***أماه***" يبدأ كـــل فقـــرة فيـــه بـــهذا النداء " من نحن اليوم يا أماه ؟. نحن اليوم غرباء يا أماه، أماه. قد امتـــلأ حسي إرهاصا بالكارثة قبل وقوعها.٠٠٠ أماه.٠ من ذا الذي يقص علـــى أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب، أماه. ***عندي لك أنباء كثيرة.*** ***ثم يختم مقاله مرددا :-***

أماه.٠٠ أماه.٠- أماه.٠٠ [١]

وكذلك مقال "*أماه*" للأتسه أمينة قطب التي تردد فـــي كـــل مقطع منه:-

أمي.٠٠ أمي.٠٠ أمي.٠٠ [٢]

وكذلك حسن القرشي بعنوان لقصيدته "أماه"

وينادى : أماه : هل تصغين [٣]

وتنادى الشاعرة وفاء وجدى على أمها، بالصفات التى كانت تتمتـــع بها فى حياتها :-

---

[١] الرسالة : العدد ٣٨١ صـــــ١٦٠٢

[٢] الرسالة : العدد ٣٨٢ صـــــ١٦٢٩

[٣] ديوان حسن عبد الله القرشي المجلد الثاني صـــ٢٤٣

يا وشوشة العصفور على صدر الفجر
يا نفحة طيب علوية
يا منحة من أعطانا فيك الرحمة والحب [٤]

وفى بعض الأحيان لا يستخدم الشاعر أداة النداء، بل يخـــاطب الأم مباشرة، وذلك يدل على تناسى الفقد، ***ومحاولة تمثل الأم حية حاضرة فـــي ذهن الشاعر على الأقل :***

ورحلت كأنك ما كنت لنا
عشا للأفراخ المهجورة
وكأنك ما كنت لنا
دفئا يتسلل عبر لياليا المقرورة
ورحلت كحلم بدده صبح مغتر
وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب [١]

فالشاعرة هنا ترفض أن يكون الحديث بضمير الغـــائب،ترفـــض أن تقول وفقدنا حين فقدناها.٠٠، أبدا هى ليست غائبة، وإنما هـــى حـــاضرة تخاطبها، وتحكى لها، والعقـــاد يســـتخدم ضمـــير الخطـــاب أيضـــا فـــي قصيدته، ***ويرفض الحديث عنها بضمير الغائب :-***

خلا الكون منك فماذا أرى من الكون بعدك إلا ظلاما

---

[٤] ديوان : الرؤية من فوق الجرح صـــ٣٢
[١] المرجع السابق صـــ٣٣

فيا هولها من قفار تركت ... ويا شد ما قد عرت الرجاما
لأجلك كنت أخاف الخطوب ... فما الخوف بعدك إلا سلاما (٢)

ومع ذلك وجدنا بعض الشعراء يتحدثـون فـي قصـائدهم بضمـير الغائب، مكثرين من استخدام الفعل الماضى، كتجسيد لهذا الفقد، وإحسـاس بهذا الألم، رافضين العزاء والتأسى والتصبر، مجسدين المصيبـة، بـاكين عليها راثين لها،صارخين بالألم من أجلها، ومن هؤلاء ***الشاعر إبراهيـم عبد الفتاح عندما يقول:***

أغلى الكنوز دفنتها في حفرة. ورجعـت مكلـوم الجـوارح باكيـا

ومع ذلك ينتقـل الشـاعر متجـاوزا هـذه المرحلـة فـي نهايـة القصيدة، مخاطبا أمه

مناجيا لها، متحدثا معها :-

يا من نعمت ببرها وحنانهـا. ... ووجدتها فى الحر ظلا ساجيا
لما اختفى مصباح وجهك أظلمت. ... فى عينى الدنيا وعفت حياتيا
كم كنت أغضب فى الحياة فإن بدا. ... لى وجهك البسام أبسم راضيا
أنا لست أنسى منك رأيا صائبـا ... .ألفى له ما كنت قبل رائيـا
من غير علم تنطقين بحكمـة ... كالوحي كالإلهام يشرق هاديا
كم كنت أسأل فى حياتك مـا الذى. ... أهدى إليك لكى يبين ولاتيـا

(٢) الأم في الأدب : فتحى الإبيارى صـ٢٨

أى الهدايا ترتضين أزفهـــــــا. لك كي أكون على الجميل مجازيا

والآن لا أهدى إليك هدية. إلا دموعا - لا تجف - جواريا [١]

بل إن الشاعر ليترقى فى هذا القرب من أسلوب الخطاب، كأن تلـــك الأم ماثلة حية يخاطبها وتخاطبه وتسمع كلامه، يترقى فى هذا القرب وهذا الإحساس إلى مرتبة أخرى هى مرتبة الحوار، ***وفيها يجـــرى الشـــاعر حوارا مع أمه :-***

أيحس قلبك بارتياح عندمـــا آتى ضريحك مستمدا داعيا ؟
أيفيض قلبك بالحنان كعهدنا بحنانه أم صار قلبا قاسيـــا ؟

ثم يجيب الشاعر سريعا قبل أن تنطق الأم، ***رافضا أن يعرف قلبـــها القسوة أو الجفوة ونافيا أن يقل برّها على مر الأيام:-***

حاشا لبرك أن يقل على المدى حاشا لقلبك أن يرى متجافيا
إنى أكاد أمس نبض فؤادهـــا في قبرها إن جئت أشكو حاليا [٢]

وربما كان الشاعر غريبا وقت الفاجعة، فانعكس ذلك على قصيدتـــه وجاء الحديث عن تلك الأم بضمير الغائب تجسيدا لهذا الفقد، ***ونلـــك فـــى قصيدة شوقي :-***

سقاها بشيري وهى تبكى صبابة. فلم يقو مغناها على صوبه رسما

---

[١] ومضات فكر ونبضات قلب :صـــ١١٥

[٢] المرجع السابق صـــ١١٥

أست جرحها الأنباء غير رفيقـــة. وكم نازع سهما فكان هو السهمـــا
تغار على الحمى الفضائل والعلا. لما قبلت منها وما ضمت الحمـــى
أكانت تمناها وتهوى لقاءهـــا إذا هي سماها بذي الأرض من سمى
آلمت عليها واتقت ثمراتهـــا. فلما وقوا الأسواء لم ترها ذمـــا
فيا حسرتا ألا تراهم أهلّـــــة. إذا اقصر البدر التمام مضوا قدمـــا
رياحين في أنف الولى وما لها. عدو تراهم في معاطسها رغمـــا
وألا يطوفوا خشعا حول نعشها ولا يشبعوا الركن استلاما ولا لثما [1]

وهكذا ترى التعبير بضمير الغائب وقد سيطر على القصيـــدة كلـــها إحساسا بالغربة وغياب تلك الأم، وتجسيدا لهذا الفقد الذي ابتلى بـــه مـــع غربته.

ومن هنا فقصيدة رثاء الأم يمتزج فيها الإحساس بـــالفقد وتجســـيده فيتحدث الشاعر بضمير الغائب، معبرا بالفعل الماضي عما فقده وضـــاع منه، ويتمزج ذلك مع لهفته على الإحساس بأمه ووجودهـــا ورفضـــه أن تكون قد غابت رغم الموت،فيخاطبها ويحدثها وينادى عليـــها ويحاورهـــا معبرا بالنداء وبضمير المخاطب وبالحوار أحيانـــا. ومـــن هـــذا المزيـــج المتناقض في قصيدة الرثاء – رثاء الأم– يطلعنا الشاعر على ما يعتمل في داخله من أحزان، وترديه بين اليأس والأمل،والتصبر والتماسك أو الـتردى في وهدة الأحزان.

---

[1]) ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٢

وعندما يتحدث الشاعر عن أمه،وكيف كانت،فإنه يستعين في وصفـها بالتشبيه وقد وصف الشعراء أمهم بالكنز، فهم ضيعوه ودفنوه في التراب

شيعت فيك حنان أمي في الثرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا [١]

وكذلك في قصيدة الدكتور محمد العزب:-

ونعود مع الشفق الغارب
أطلال جدار منهار !!
ضيعنا الكنز وعدنا نبكى كالأطفال !! [٢]

وكذلك في قصيدة فريد عين شوكة :-

أي كنز فقدته في نواهـــــا أي خسر أصابني أي غرم [٣]

ووصف الشعراء أمهم بأنها درة، وبأنها نعمة كبرى :-

يا قبر فاهنأ بالتي أحرزتهـا هي درة في الدرج لاحت تسطع [٤]

ومطران يصف أمه بالنعمة العظيمة :-

يا نعمة عظمت فلم تـــدم وكذا تكون عظائم النعـــم [٥]

---

[١] ومضات فكر ونبضات قلب :صـــ١١٤

[٢] الأعمال الشعرية الكاملة : دكتور / محمد احمد العزب صـــ٦١٦

[٣] الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

[٤] حليه الطراز صـــ٣٠

[٥] ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧

وبموت الأم تتحول تلك الحياة إلى ذكريات حلوة يشبهها الشعراء بتشبيهات مختلفة ***فهذه الذكريات تتهادى كحبيب الرؤى عند الشاعر فريد عيـــن شوكة :-***

ذكريات في خاطري تتهادى كحبيب الرؤى بأروع حلم [١]

وتلك الذكريات تشكل راحة للقلب عند الشاعر إبراهيم عبد الفتاح:-

هي ذكريات من حنانك لم أزل أتلو بها الفضل العظيم الباقيا
أجد ارتياح القلب في تذكارهـــا وكأن وجهك لا يزال تجاهيا [٢]

ويشبه البردونى آثار الصفو هذه بخيالات الشباب فيقول :-

خلفتني أذكر الصفو كمـــــا يذكر الشيخ خيالات الشباب [٣]

ويشيع التشبيه في تصوير حياة الأم، كما في قصيدة "البردونى" :-

هدهد ت كفاك رأسي مثلمـــا هدهد الفجر رياحين الروابي
وسواقي النهر تلقى لحنهـــا ذائبا كاللطف في حلو العتاب [٤]

وفى قصيدة خليل مطران :-

يبكيك نسل كثيـــــــر أنجبته للمعالـــــــــي

بين الكهول وبين الشباب والأطفال

:-

---

[١] الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧
[٢] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤
[٣] ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول صـــ١٣٨
[٤] المرجع السابق صـــ١٣٨

وأنجم وشمـــــــــوس من عفة وجمـــــــــال (*)

فهو يشبه هؤلاء الرجال والفتيان بالأهلة والبدور، وهـــؤلاء النسـوة بالأنجم والشموس، هذا النسل الكثير الذي أنجبته جدته، ويشبه حالـــه بعـــد موت الأم، فعزه كالذل، والإثراء كالعدم (١)

ويشبه إبراهيم عبد الفتاح تلك الأم بالأيكـــة، وبـــالروح، وبالأنبيـــاء وبقلب الكون ونبراس يضيء شعاعه،وهى كالربيع، و مزنة من السماء

الأم مثل الأنبياء رسالـــــة وكجندهم في الصالحات تفانيـــا
الأم نبراس يضيىء شعاعـــه سبل الحياة فليس يترك داجيـــا
الأم عين لا تنام مع الدجـــــى إن بات ليلك ساهرا أو شاكيـــا
هي من سماء الحب أكرم مزنة سقت الثرى فنما وطاب مجانيا
هي كالربيع كسا الحياة جمالها وأجل منه على الحياة أياد يا (٢)

ويشبه سيد قطب أمه وهى ترعاهم بالطير الذي يعشش على أفراخـــه وبأنهم ما زالوا فراخا زغبا في حاجة إلى رعايتها " والعش الـــذي خلفتـــه ستظل فراخه زغبا مهما امتد بها الزمن، لأن يدك الرقيقة لا تمسح ريشـــها وتباركه "(٣) .

(*) ديوان خليل مطران جـــ٢ صـــ١٣٨
(١) ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧
(٢) ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤
(٣) الرسالة : العدد ٣٨١ صـــ١٦٠٢

ويشبه فريد عين شوكة محيا هذه الأم ببدر التمام

وهـــى تســـعى إلـــى دون اقتـــدار بمحيـــا كأنـــه بدرتـــــم

ويصور حديثها بأنه كالشهد:-

والحديث الشريف يقطر كالشهد د بريئا مـــــن اغتياب وذم

ويصور كتما نها للسر فيشبهه بشيء ألقيته في الخضم :-

ثم تمضى الأحداث والسر خاف فكأني ألقيته في خضـــــم [٤]

ويستعين الشعراء في تصويرهـــم للأســـى والحـــزن بالاســـتعارات والمجازات والكنايات وغـــــير ذلـــك، فـــالبردونى يكنـــى عـــن المـــوت بقوله"*حاصد العمر*":-

ودعاها حاصد العمر إلى حيث أدعوها فتعيا عن جوابى

ويستخدم الاستعارات والمجازات في قوله :-

حيث أدعوها فلا يسمعني غير صمت القبر والقفر اليبـــاب
أه يا أمي وأشواك الأسى تلهب الأوجاع في قلبى المـــذاب
كم هدتنى يدك السمر إلى حقلنا فى الغول فى قاع الرحاب [١]

وفى قول الشاعر إبراهيم عبد الفتاح :-

إن يحبس الدمع الحياء أساله من جاء بالقول الجميل مواسيا [٢]

---

[٤] الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

[١] ديوان عبدا لله البردونى : المجلد الأول صـــ١٣٨ .

[٢] . نغمات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

وفى قول العقاد :-

وأفحمنى فيك خطب النعى ى وفى غيره ما شكوت الفحاما [٣]

وفى قول الهراوى :-

سرى لى يا أماه طيفك فى الكرى فغاب خيال الأم عن ذروة الأم[٤]

وفى قول : وفاء وجدى

دقت ساعات الليل ثقيلات الخطوات
تتعثر بين دقائقنا وثوانينا
أمات حشرجة غيبوبة
لكن ما عن لنا أن يأتى زائرك المكروه
يتسلل من ثقب في نافذة الظهر [١]

ومع شيوع الخيال بهذه الصورة في قصيدة رثـــاء الأم، فقـد كـان للحقيقة دورها في هذه القصيدة، بل ربما جاء أسلوب الحقيقة على بسـلطته صادقا ناصعا مشعا، فيجسم المصاب مستمدا من بساطته وواقعيتـــه قيمـــة حقيقية تجعله أبلغ من كل خيال. فإذا كان للخيال أثره القوى في الصـــورة،

---

[٣] الأم فى الأدب : فتحى الإبيارى صـــ٢٨
[٤] الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧
[١] الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧

وسحره البارع في النفس، فإن الأثر الجمالي قد يوجد فيها مـــن الجمـــال والروعة ما يقوم مقام الخيال (٢)

وقد صاغ الشعراء حقيقة الموت مجردة من كل خيال فكـــانت أكـــثر وقعا وأشد تعبيرا،ومن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد العزب عندمايقول

" أمي ماتت "

وأحدق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا !!

يا قسوة عين لا تبكى أحزان الناس !!

أمي ماتت !!

لكن حمائم جارتنا

مثنى مثنى !!

وأنا أتحسى كلمات ذابلة الوجه بلا معنى !!

" ماتت ...متنا " !! (٣)

هكذا يكرر الشاعر تلك الحقيقة الفاجعة***أمي ماتت*** " ***ماتت ..متنا***"

ويلتفت ليرى جمود الناس والمشاعر والحركات، وقد جاءت الجملـــة الخبرية على بساطتها مصورة للفجيعة اعظم تصوير.

---

(٢) الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة :شعر الدكتور محمد احمد العزب صـــ٦١٣

وكذلك قول الشاعر عبد الله البردونى في قصيدته :-

تركتني ها هنا بين العذاب ومضت يا طول حزني واكتئابي [1]

تركتني، وهى التي كـــانت تطعـم وتســقى وتــأخذ بيــده لتهديــه الطريق، ومع ذلك تركته، وتركتـــه هـــا هنـــا، بيـــن العـــذاب، وتركتـــه ومضت، هذه الكلمات البسيطة الخالية من أي خيال، هي اكبر دلالة مـــن أي خيال، بعد أن تعرف ظروف هذا الابن المكفـــوف البصـــر الـــذي لا يستغني عن تلك الأم

العاطفة :-

إذا كانت عاطفة الحزن هي التي تسيطر على قصيدة الرثاء بشـــكل عام، فإن رثاء الأم لا يحتاج إلى تصنع لهذا الحزن، ولا تشتت العاطفـــة، وإنما تسيطر على قصيدة رثاء الأم عاطفة الحزن الصادقة غير المفتعلـــة، إلا أن عواطف أخرى وأحاسيس مغايرة تتداخل مـــع هـــذه العاطفـــة، لا لتشتتها وتزيفها، بل لتعاضدها وتؤازرها، وذلك وفقا لظروف إنشاء كـــل قصيدة من ناحية، وظروف موت الأم من ناحية أخري، وظـــروف وقـــت إنشاء الشاعر للقصيدة من ناحية ثالثة. ولولا هذا التنوع والتلـــون داخـــل إطار الحزن لأغنت مرثية واحدة عن غيرها من المراثى[1]

---

(١) ديوان عبد الله البرودونى : المجلد الأول صـــ١٣٨

(١) يشير احمد الشايب فى " الأسلوب " إلى أن قراءة مرثية أبى العلاء ليعث عاطفة المعرى التى أثارها، لن تسد لابن الرومى أو أبى تمام أو شوقى ذلك لأن عاطفة المعرى من طراز خاص به. أصول النقد الأدبى : احمد النهضة المصرية الطبعة الثامنة

فالشاعر عندما يبكى أمه تعبيرا عن حزنه وهو شـــيخ كبـــير، يجـــد سؤالا من الأعين المحيطة به عن سر هذا البكاء وقد بلغ مبلغ الرجال، ولم يعد هؤلاء الرجال فى حاجة إلى الأم كالأطفـــال. ولذلـــك رأينـــا هـــؤلاء الشعراء يبررون فى قصائدهم لهذا البكاء وهذا الجزع. وقد أشار العقـــاد إلى هذا التعجب من الناس للبكاء على الأم والشاعر فى هذه السن وفى هذا العمر، فراح يفند مزاعمهم، ***فالشيب لا يعنى تجمد المشاعر والعواطف ولا موت الأحاسيس وعدم التعبير عنها:-***

تعجب قوم لشيخ بكـــــــــى أكان المشيب لدمعى فطامـــا ؟
وأم لما دون عشر تعـــــــــز فراقا فكيف لسبعين عاما ؟(١)

إن الأم إذا عاش معها الطفل عمرا قصيرا تعز عليه ويفتقدها ويبكـــى هذه الفترة القصيرة،فكيف يكون حال من عاش معها سبعين عاما هل تهون عليه هذه المعايشة الطويلة ؟ وهل كان المشيب مانعا لدمعه وحابسا لـــه؟. والهراوى يؤكد أنه لا يحس باليتم إلا الكهل، ***فقد هدّ الأسى عزمه :-***

فقدت أبى طفلا فلم أدر ما الأســـى وأفقدنى كـــهلا فـــهدّ الأســـى عزمـــى
سلونى أحدثكم عن اليتـــم بعدهـــا فإن اليتيـــــم الكـــهل أعـــرف بـــاليتم
فيا ليت أيام الحياة وقفن بى لدى موضعى منها من اللثم والضم(٢)

فهو يؤكد أن جزعه وهو كهل له ما يبرره، بل إن الكهل هو الـــذى يعرف الجزع ويحس به، لقد فقد أباه وهو صغير، فلم يدر ما الأسى، ولـــم

(١) شاعرية العقاد : عبد الحى دياب صـــ٢٦٤، وديوان العقاد صـــ٤٥٩ المجلد الأول طبعة بيروت
(٢) الرسالة : صـــ ٢٠٢٧ من العدد ١٢٨

يعرف طعم الحزن، ولم يذق اليتم، وعندما فقد أمه وهو كهل هـدّ الأسـى عزمه وهوى ركنه، والشاعر عمر بهاء الدين الأميرى يطلب فى قصيدتـه ألا يعذله، ***أو يعتب عليه أحد فى بكاء تلك الأم فقد كـانت ضيـاء العمـر وموئل النفس ومدخر الحياة :-***

يا صحب لا تعذلونى فى البكاء وقد فقدت أمى فقلبى ليس من حجر
أمى وقد كانت ضياء فى دجا عمرى وموئل النفس فى الجلى ومدخرى (١)

والشاعر إبراهيم عبدالفتاح يؤكد أنه رغم موت أمـــه وقـد شـابت مفارقه، ***فقد ارتد طفلا صغيرا يصرخ من الألم :-***

راحت وقد وخط المشيب مفارقى فرأيتنى كالطفل يصرخ باكيـــا (٢)

وهكذا نرى تفرع وتشقق عاطفة الحزن إلى عنـاصر أخـرى تمـد العاطفة الرئيسية بزاد لا ينفذ من تأكيد هذا الحزن وتقويتـه وقـد تكـون الغربة والإحساس بالضياع دافقا للتشبث بما بقى مع الإنسان فيدفعه ذلـك إلى الفخر بنفسه وبتلك التى ماتت، وهو ما نراه فى قصيدة احمد شـوقى عندما نفى إلى الأندلس وعاش بعيدا عن وطنه، ومجده وجاهه، ثم نعيـت اليه أمه، فراح يتماسك ويتماسك ولم يستطع، ولم يجد إلا الفخـر مـلاذا يستند عليه. وقد ارجع كثير ممن كتبوا عن شوقى وجود عنصر الفخر فـى قصيده الرثاء، إلى معارضته أو تقليده للمتنبى وأبى العلاء، وقد أدى وجود عنصر الفخر إلى فقر فى عاطفته (وبعد فإننا نستطيع أن نقول إن قصيـدة

(١) الرثاء فى الشعر العربى د محمود حسن أبو ناجى منشورات دار مكتبة الحياة الطبعة الثامنة
(٢) ومضات فكر ونبضات قلب صـ١١٤

شوقى أصيبت من أول الأمر بفقر عاطفى دفع شوقى إلى محاولـــة ســـتره فكانت تلك الحكم الهزيلة، والمفاخر المسرفة)(٣) فالمعارضة هـــى التـــى جعلته يقلد مـــن يعارضـــه، وأصـــابت قصيـــدة الرثـــاء بـــهذا الخـــواء العاطفى، ويشير الدكتور شوقى ضيف إلى أبيات الحكمة التى يبـــدأ بـــها شوقى قصيدته والتى ينحاز فيها عن الندب والبكاء وبث اللوعة إلى التفكير فى الحياة والموت، وان دنيانا لحظات قصيرة مـــلأى بالأوصـــاب والالأم ويسترسل فى هذا العنصر الإنسانى حتى يخرج القصيدة من حيز الرثـــاء الشخصى إلى حيز إنسانى عام، يجد فيه كل مواطن، بل كل عربى ســـلوته وعزاءه، وما يساعده على أن يصرع حزنه وشقاءه وأوجاعه النفسية، ***كأن يقول فى رثاء جدته :-***

ومهد المرء فى أيدى الرواقى كنعش المرء بين النائحات

ولا ينسى الدكتور ***شوقى ضيف*** أن يشير إلى تأثر شـــوقى بـــالمتنبى وأبى العلاء، وذلك ***بقوله*** :-"***وليس هـــذا العنصـــر فـــى رثـــاء شـــوقى جديدا فى العربية***"، فهو موجود من قديم، ووسعه المتنبى، ثم انتهى به أبـــو العلاء إلى الغاية فى مراثيه إنما الذى نلاحظـــه أن شـــوقى اســـتغل هـــذا العنصر فى رثائه،ولم يفته استغلاله إلى ابعد الحدود حتى يعمق فى قرائـــه إحساسهم أو قل حتى يخاطب أعماق نفسياتهم، وهو يسلك فى هذا العنصـــو حكما كثيرة مقلدا أستاذه المتنبى [١]

---

[٣] المعارضة فى شعر شوقى د إبراهيم عوضين صـــ١٨٥ مطبعة السعادة الطبعة الأولى

[١]شوقى شاعر العصر الحديث د شوقى ضيف صـــ١٥٣ دار المعارف الطبعة الثامنة

وتفرع عاطفة الفخر عن الرثاء أمر طبيعى سلكه الشعراء فى القـــدم عندما دعت الحاجة إلى ذلك،عندما أحسوا بالضيـــاع والتشـــتت فراحـــوا يتماسكون ويلوذون بالفخر فى محاولة للتمسك بما بقى لهم، من هؤلاء فـــى القديم أبو العلاء المعرى فى رثاء أمه، وكذلك المتنبى فى رثاء أمه أيضـــا وفى العصر الحديث نجد الشاعر احمد شوقى كما مر بنا.

وكذلك نجد عبد الله البردونى، وقد كان مكفوف البصر فلما ماتت أمه وقد كانت تطعمه وتسقيه وتهديه الطريق وكانت كل حياته وعندما مـــاتت راح يتناثر ويتشتت ***وفى محاولة للتماسك لجأ إلى الفخر فقال :-***

ها أنا يا أمى اليوم فتـــى طائر الصيت بعيد فى الشهاب
املأ التاريخ لحنا وصدى وتغنى فى ربا الخلد ربابى(٢)

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الفخر عنصر من عناصر الرثاء، أو متفرع عن عاطفة الحزن، فقد أشار احمد الشايب عند حديثه إلى تنـــوع العاطفـــة كما وكيفا إلى أن الحزن يلبس أحيانا ثوب العبرة أو الشوق أو الشـــكوى أو التأسى والتصبر على الخطب الفادح أو الفخر الذى هو تحد لهؤلاء الذيـــن يعتزون على الدنيا بسلطانهم الطريف، ويصرفون شئون الخلائق بما طـــرأ عليهم من عزة، وكل ذلك حزن عام واحد التيار، مهما تختلـــف مظـــاهره الجزئية الفرعية أو درجته فى القوة[٢]

---

[٢] ديوان البردوني

[٢] أصول النقد الأدبى/ احمد الشايب صـــ١٩٩ مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة

وقد يتفرع عن الإحساس بالحزن فرع آخر هو الحـــيرة أمـــام لغـــز الموت، ويروح الشاعر أسير تساؤلات حائرة، يديرها بينه وبين نفســـه،ولا يجد لها إجابة،ما سر فقد الأحبة؟ وما سبب غيابهم ؟وما الحكمة من ذلـك ؟

ومن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد احمد العزب عندما يبكى أمه فيقول:

ويسير النعش على أعناق الناس إلى الوادى الأخر !!
وأنا أتساءل :
ما جدوى أن أحيا أو يحيا الأخر ؟
هذا غدنا
أن يحملنا محمولون !!
أن يبكينا مبكيون !!
أن نعبر هذا الكون إلى كون غامض !!
المؤمن يحيا خلف جبال الموت هناك بلا موت !!
وأنا أتساءل :
ولماذا لا نحيا دنيانا الحلوة فى هذا البيت ؟
ما حكمة أن نحصد من حقل العالم أعناق الأزهار ؟
كى نطعم آلاف الديدان ؟
ما أتفهنا !!
كى يمسى العالم تحت دثار الليل القابض فى صمت ؟
ما أتفهنا !!

لو نملك قلنا للقابع فى أعمق أعماق الجرح :

جادلنا بالحرف.

وأسقط من يدك سكاكين الذبح !!

والشاعر فى شدة حيرته يتساءل، ويصر على أن يثبت هذا فى كـــل مقطع، فهو مجرد تساؤل،وفقط، وهى حيرة وفقط، هو ليـــس اعتراضـــا ولا شكا ولا يقينا، ولكنها مرحلة ما بين هذا وذاك، نتجت عن حيرته أمام فقد الأعزة.والشاعر فى مقطع أخر لا يتساءل وإنما يأخذنا معه، ويجعلنـــا نعيش هذه الحيرة، ونتساءل كلنا أمام هذه اللوحة الحقيقية، حين نشـــارف مقبرة الأسرة، ونلاحظ أنه كان فى اللوحة الأولى يتســـاءل وحـــده***"أنـــا أتساءل***" ولكنه فى هذه المرة ومع هذا المقطع يأخذنا معه، لـــم يتســـاءل وحده؟

امقتنعون انتم ؟ أذن فليكن هؤلاء معى "***ونشارف مقـــبرة الأســـرة***" ويرسم هذه المقبرة فإذا هى هاوية العدم، وإذا هى فاغرة فاها، جائعة أبـــدا لتلك البراعم الخضراء ويبدا الشاعر أمامنا، وأمامنا جميعـــا فـــى تجربـــة حائرة،ينادى فيها على أبيه،أن يرحب بتلك الأم،وأن يستقبلها ويرجـــوه أن يقوم ليرحب بها، أن يوقد شمعته، أن ينير قبره، ثـــم يناديـــه- تســـمعنى؟ وياله من سؤال إجابته معروفة لنا جميعا ونحن شهود عليه وتتكـــرر فـــى الحيرة ***لفظة***" أم"تكشف عن تردده بين هذا وذاك بين الشك واليقين، بيـــن الحقيقة والخيال،بين الثابت والمتغير،رحب بـــالضيف القـــادم مـــن وادى

العدم !! أم انك أنت الأخر تحيا خلف متاهات العدم ؟ تســـمعنى ؟ أم مـــا زلت رجاما بين رجامات أخرى؟ أم أنى أتكلم شيئيا طينيا من لغـة الأرض ؟ ويؤكد الشاعر على أنه يتساءل ليعرف،ليرد إلى صوابه، ليـــنزل بـــرد اليقين فى قلبه،إنه لا يشك،ولكنه يريد لينزل اطمئنان القلب. يا أبتـــى هـــم قالوا للموتى إن عبروا،دنيا أخرى، أنا لا أنفى حاشا للفانى أن ينفى حتـــى الأشياء المنفية!!لكنى انشد أن اسمع يـــا ابتـــى صوتـــك مهموســـا،حتـــى مهموسا، فالشاعر لا يبغى الحقيقة واضحة ناصعة، ولكنه يتلمـــس مجـــرد شعاع ضوء، خيط حقيقة،بارقة اطمئنان وتلك الحيرة هى عنصـــــر مـــن عناصر الحزن،لا يمكن أن تنفصل عنه، ***بل أزعم أنها تؤكده وتقويه وتدل عليه يقول الشاعر:***

ونشارف مقبرة الأسرة !!
هاوية العدم الجوعى أبدا لبراعيم الخضرة !!
فأدمدم فى صوت مرّ:
يا ابتى قم رحب بالضيف القادم من وادى العدم
أم أنك أنت الأخر تحيا خلف متاهات العدم ؟
إن كنت سمعت..
فقم رحب بالضيف القادم يا أبتى !!
قم يا ابتى أرجوك..
وأوقد شمعاتك !!
رقرق فى الحفرة بعض تهاويل الضوء !!
بعض الألوان على تهاويل الضوء !!

فأنا يخنقنى أن تحيا أمى فى ليل منطفئ !!
تسمعنى ؟
أم ما زلت رجاما بين رجامات أخرى ؟
يا ابتى.. هم قالوا " للموتى إن عبروا دنيا أخرى "!!
أنا لا أنفى..
حاشا للفانى أن ينفى حتى الأشياء المنفية !!
لكنى أنشد أن اسمع يا ابتى صوتك مهموسا !!
حتى مهموسا.. مهموسا !!
يهمى من خلف تخوم الأبدية !! (١)

ومع تنوع عاطفة الحزن بهذه الصورة وتلك الكيفية، فإن عاطفة الحزن أيضاً تتنوع كما ودرجة، *فنراه عنيفا حادا يرفض التوقف أو التأسى والتصبر أو عميقا رزينا هادئا يتأسى ويتصبر :-*

ومن العاطفة الحادة العنيفة قصيدة الشاعر فريد عين شوكة، تلك التى صاغها فى أبيات تزيد على خمسين بيتا لم تخمد فيها عاطفته ولم تهدأ من أول بيت إلى آخر بيت، *يبدأ القصيدة بالتحسر على ما فقده:-*

لا تلمنى على بكائى وغمى أى صبر يعين فىفقد أمـــــى
أى كنز فقدته فى نواهـــا أى خسر أصابنى أى غـــــم ؟

وهو ينهى قصيدته بأنه لا يطيق الحياة بعدهـــا ويتمنـــى أن لوكـــان قدسبقها ومات قبلها، *ويتمنى فى أخر بيت فى القصيدة أن يـــزوره الـــردى والموت والهلاك :-*

(١) الأعمال الكاملة شعر دكتور محمد احمد العزب صـــ٦١٤

أيها الدمع لاهجرتك حتـــى ينزف القلب فى انسكابك دمى
أيها الصبر لا عرفتك حتى يستوى فى جوار أمى جسمى
لا أطيق الحياة بعد نواهـا أه ياليت يومها كان يومـــى
يا عوادى الردى فقدت رجائى فهلمى خذى الحياة هلمـــى [١]

ومن النوع الأخر الذى نجد فيه عاطفة الحزن هادئة رزينـــة وتـــهدأ وتستسلم فى نهاية القصيدة، ***قصيدة الشاعر خليل مطران فـــى رثـــاء جدتـــه والتى يبدأها بقوله:***

يا ترب عصرك بيتى فى رحمة المتعالـــى
حببت خير حيـــاة وألت خير مـــــآل

وينهيها بنفس العاطفة الحزينة المستسلمة ***بعد أن عدد خصالها الكريمة:-***

اليوم أخطرها البين كلها فى بالـــى
وسلسلتها دموعى على ثراك الغالى[٢]

وهكذا نجد تنوع عاطفة الحزن فى قصيدة الرثاء كما وكيفـــا بـــهذه الصورة التى تناولتها الدراسة.

.....

(١)الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧ قصيدة بعنوان " أمى "
(٢)ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧

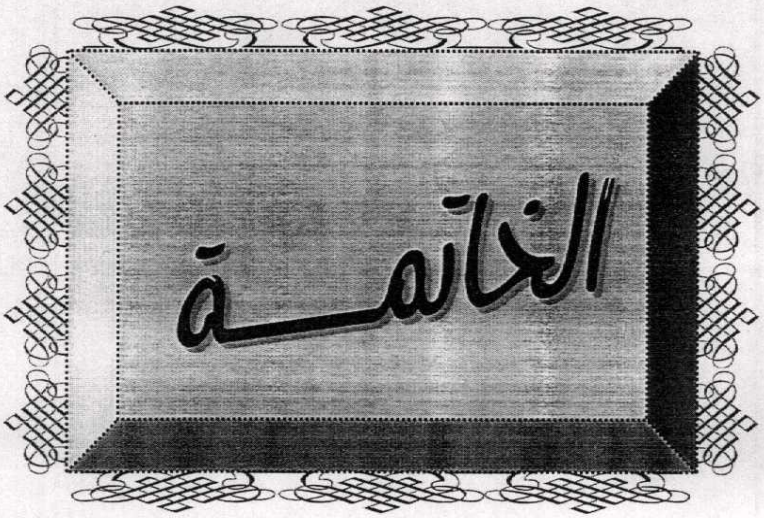
الخاتمة

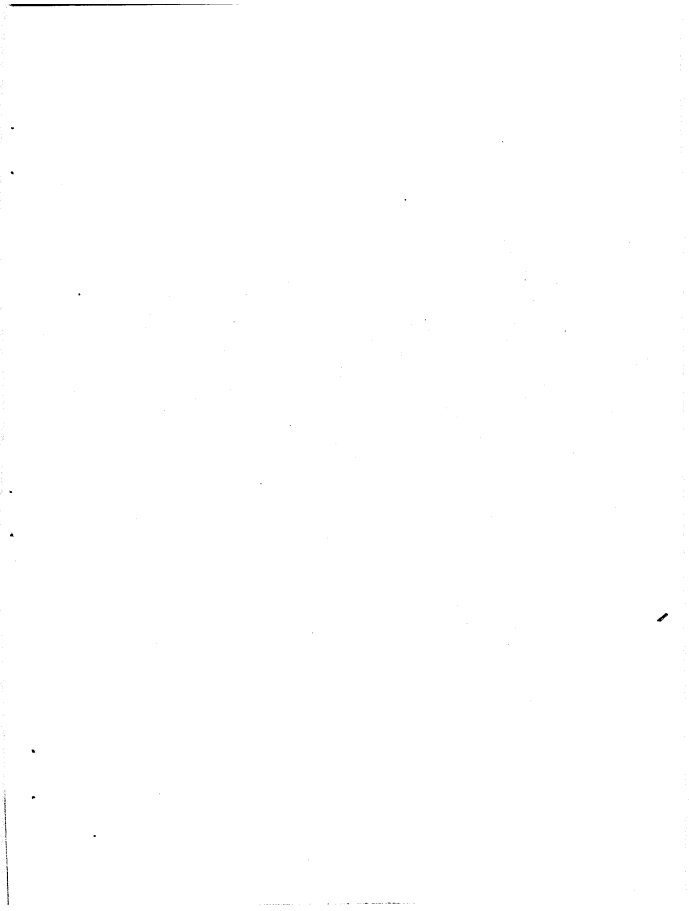

الخاتمـــــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :-

فقد اهتمت هذه الدراسة برثاء الأدباء لأمهاتهم فى أدبنا العربى الحديـث، وإن كانت قد أشارت فى تمهيد سريع إلى الأم فى أدبنا العربى قبل ذلك، وقـد تحدثـت الدراسة عن مدى اهتمام الشعراء بالأم فى حياتها وبعد مماتها، مصوريـن فـى عاطفة صادقة دور الأم فى تشكيل حياتهم، ومدى ما أصيبوا بـه بعـد فقدها، وتصوير هؤلاء الأدباء لتلك العاطفة. وقد كان لهذه الدراسة بعض الـرؤى المتواضعة يستحسن أن نوجزها فى تلك الخاتمة.

* ترجح الدراسة أن بدايات رثاء الأم كانت عند ابن الرومى وليس الصنوبـرى كما يقول الدكتور شوقى ضيف.

* تؤكد الدراسة على أن بدايات رثاء الأم كانت عند ابن الرومى والصنوبـرى، وليست عند المتنبى كما يقول فتحى الابيارى.

*هناك من الشعراء من كتب إلى أمه فى حياتها وذلك فى شعرنا القديم والحديـث فمن القديم، نجد الشاعر أبا فراس الحمدانى، يكتب إلى أمه وهو فـى سـجنه، مؤاسيا وداعيا إلى الصبر والتأسى بالخنساء. وفى العصر الحديث نجد روحيـة القلينى،وطاهر زمخشرى، وعبد الرحمن العشماوى ومحمد عبد الغنى حسـن، ومما يدحض تلك القولة التى تدعى أن الشاعر لم يعرف أمه فـى شـعره إلا راثيا.

*لم ينس الشاعر أمه بعد قصيدة الرثاء،وانما ظل يكتب عنها بعد مماتها

وبعد رحيل جسدها،ومن هؤلاء الشاعرة جميلة العلايلى،والدكتور محمـــد أحمـد العزب٠

*تناول الشعراء فى قصيدة الرثاء قضايا عديدة عكست هموم العصـــر، ومن ذلك قصيدة الدكتور محمد احمد العزب التى صـــورت عـدم المشـاركة الوجدانية من الآخرين والتى أصبحت ظاهرة تغلف حياتنا الحديثـة، وتكشـف خواء العاطفة عند الناس، وكذلك قصيـدة "***دمعـة علـى سمـاعة الهاتف***" للشاعر ***عبد الرحمن صالح العشماوى*** تلك التى تصـور الاغـتراب والسفر والبعد عن الأم.

*شغلت قصيدة الرثاء بموضوع واحد وهو رثاء الأم وخلت من المقدمات.

*تميزت العاطفة فى قصيدة الرثاء للأم بالصدق ولذلك خلت من التصنع

*رثى الأدباء أمهاتهم شعرا ونثرا،وجاءت قصيدة الرثاء فى قوالب مختلفة.

* قلد المحدثون القدماء فى الدعاء للأم بالسقيا.

*تفاوت الشعراء فى وقوفهم من الحدث ما بين جزع وهلع ومـــا بيـن تمّاسـك وتصبر

* لجأ الشعراء إلى التشبيه عند الحديث عن الأم وفضلها، ولجأ الشـــعراء عنـد الحديث عن الفقد إلى المجازات والاستعارات وغير ذلك.

* تنوعت عاطفة الرثاء كما وكيفا، صعودا وهبوطـا، وفخـرا وتأسـيا وحزنـا وتساؤلات حائرة٠

* تشتت الشاعر وتبعثره وانطلاقه من الحزن إلى الفخر إلى التأسى إلـــى غـير ذلك، لايعنى تشتت العاطفة بقدر ما يعنى فـــوران هـــذه المشـــاعر وانطـــلاق صاحبها من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى لنقيض، ولكن ذلك لا يخـــــرج عن دائرة الحزن ولا يعنى تشتت العاطفة.

*ناقشت الدراسة علاقة البحر بالموضوع وانتهت إلى أن قصيدة رثاء الأم تـــأتى فى بحور مختلفة، وأن البحر الواحد تأتى أوزانه سريعة تارة وبطيئـــة أخـــرى لتناسب حدة عاطفة الشاعر أو هدوء تلك العاطفة.

▪ ولذلك فكل قصيدة تعد نمطا مخصوصا يدرس على حدة طبقا لظروف إنشـــاء تلك القصيدة.

*جاءت قصيدة الرثاء نموذجا ملهما للشعراء فى موضوعات أخرى، كطفل نـــازك الملائكة فى قصيدة الرثاء، وطفل صلاح عبد الصبور فى موضوع أخر.

*الكبر والشيب لا يعنى جمود العاطفة، ولا عدم التأثر بمـــوت الأم، بـــل أثبـــت الشعراء أنهم يتأثرون بفقدها "***وأم لما دون عشر تعز فكيف بأم لسبعين عامـــا***".

والحمد لله رب العالمين

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

أمين

لكتـــــور

عبد الناصر محمد السعيد

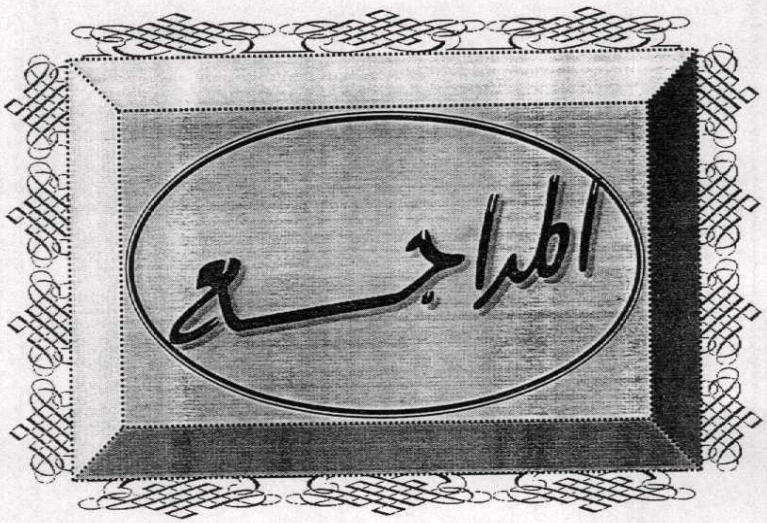
المراجع

المصادر والمراجع

(١) أبو العلاء المعرى د عائشة عبد الرحمن
سلسلة أعلام العرب
(٢) أصول النقد الأدبى ***أحمد الشايب***
مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة سنه ١٩٧٣ م
(٣) الأغانى. الأصفهانى دار العودة بيـــــروت
(٤) الأم فى الأدب ***فتحى الابيارى***
الدار القومية للطباعـــــــة والنشـــــــر
(٥) البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر
د / على على صبح
المكتبـــــــة الأزهريـــــــة سنه ١٩٩٦ م
(٦) تاريخ النقد الأدبى عند العرب
الأستاذ / أحمد طه ابراهيم
دار الحكمـــــــــة بيـــــــــروت
(٧) ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء
رجـــــاء النقاش
دار سعاد الصبـــــاح الطبعة الأولـــــى
(٨) الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى
د/ طه مصطفى أبو كريشة
الطبعـــــة الأولـــــــى سنه ١٩٧٨ م
(٩) دراسات فى الشعر العربى
محمد إبراهيم أبو سنه
سلسلـــــة اقـــــــــــــــرأ
(١٠) ديوان - ابتهالات قلب
روحيـــــــة القليني
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلاميـــــة

(١١) ديوان- ابن الرومى
تحقيق د / حسين نصار
القاهرة مطبعة دار الكتب سنـــــه ١٩٧٣م
(١٢) ديوان - ابن سناء الملك
تصحيح د / محمد عبد الحق
دار الجيل بيروت سنـــــــــه ١٩٧٥ م
(١٣) ديوان - إبن سنان الخفاجى
المطبعة الأنسيـــــــــة بيـــــــروت
(١٤) ديوان - أبو فراس الحمدانى
دار صـــــــــــــادر بيـــــــروت
(١٥) ديوان - احمد شوقى
شرح وتوثيق د / احمد الحوفى
دار نهضة مصر للطبـــــــع والنشـــــــر
(١٦) ديوان - الأعمال الشعرية الكاملة
د /احمد محمد العزب
الطبعـــــــة الأولـــــــى سنه ١٩٩٥م
(١٧) ديوان - إلى حواء
عبد الرحمن صالح العشماوى
مكتبة الأديب. الرياض . الطبعة الأولى سنه ١٤٠٦هـــ
(١٨) ديوان - أمـــــى
بهاء الدين الأميرى
(١٩) ديوان - ترانيم الرمال
عبد العزيز محمد النقيدانى
مطبوعات نـــــــادى القصيـــــــــــــم
(٢٠) ديوان - حسن عبد الله القرشي
حسن عبد الله القرشى
دار العـــــــــــودة بيـــــــــــروت

(٢١) ديوان - حلية الطراز
عائشة التيمورية
المطبعة العامريـــــــــة مصـــــــــر
(٢٢) ديوان الخنساء
تحقيق الدكتور ابراهيم عوضيين
مطبعة السعادة الطبعـــة الأولـــــــــى
(٢٣) ديوان خليل مطران
خليل مطـــــــران
دار مارون عبـــــــود بيـــــــروت
(٢٤) ديوان الرؤية من فوق الجرح
وفاء وجـــــــدى
طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٩٨ م
(٢٥) ديوان - سائر على الدرب
محمد عبد الغنى حسن
المكتبة العربيـــــة القاهـــــرة سنه ١٩٧٤ م
(٢٦) ديوان - شرح ديوان المتنبى
اليـــــــــازجى
دار صـــــــــــادر بيـــــــروت
(٢٧) ديوان - شروح سقط الزند
الدار القومية للطباعـــــة والنشـــــــر
(٢٨) ديوان - الشريف الرضى
القاهـــــــرة سنـــــه ١٣٦٨ هـــ
(٢٩) ديوان - الصنوبرى
تحقيق د / إحسان عباس
دار الثقافـــــــة بيـــــروت سنه ١٩٧٠ م
(٣٠) ديوان- عبد الله البرد ونى
دار العودة بيروت طبعة أولى سنـــــه ١٩٧٩ م

(٣١) ديوان العقاد
منشورات المكتبة المصريـــــــــة بيـــروت
(٣٢) ديوان القروى
رشيد سليم الخورى
الجمهورية العربية الليبية . وزارة الثقافـــــــة
(٣٣) ديوان كشاجم
تحقيق د / النبوى شعلان
مطبعة الخانجى الطبعـــــة الأولـــــــــى
(٣٤) ديوان لزوم مالا يلزم
أبو العلاء المعـــــــرى
دار صـــــــــادر بيـــــــــــــروت
(٣٥) ديوان المازنى
ابراهيم عبد القادر المازنى
(٣٦) مجموعة النيل
طاهـــــــر زمخشرى
الناشر : تهامه جدة السعوديـــــة سنه ١٩٨٤ م
(٣٧) ديوان نازك الملائكة
نازك الملائكـــــــــة
دار العـــــــــودة بيـــــــــــــروت
(٣٨) نبضات شاعرة
جميلة العلايلـــــــى
الهيئة المصرية العأمه للكتـــــاب سنه ١٩٨٤ م
(٣٩) ومضات فكر ونبضات قلب
ابراهيم عبد الفتاح
دار الصفا للطباعة والنشـــــر سنه ١٩٩٠ م

(٤٠) رثاء الأبناء فى الشعر العربى
د مخيمر صالح موسى
مكتبـــــــة المنـــــــــــــــار
(٤١)الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات قلب
د محمود حسن أبو ناجى
بيـــــــــروت سنـــــــــه ١٤٠٢.م
(٤٢) الرثـــــاء
د. شوقـــــى ضيف
دار المعارف الطبعـــــــة الرابعـــــة
(٤٣) ساعات بين الكتب
عباس محمود العقاد
منشورات المكتبة المصريـــــة بيروت
(٤٤) شاعرية العقاد
د. عبد الحى دياب
دار النهضـــــــة العربيـــــــــة
(٤٥) الشريف الرضى حياته وشعره:
حسن جعفر نور الدين
دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنه ١٩٧٢ م
(٤٦) شعر المتنبى قراءة أخرى
د محمد فتوح أحمد
دار المعارف الطبعـــــــة الثامنـــــــة
(٤٧) الشعر العربى المعاصر فى اليمن
د. عبد العزيز المقالح
دار العودة بيروت الطبعـــــــــة الثالثـــة
(٤٨) الشعر والشعراء -
تحقيق محمد شاكر

(٤٩) صورة المرأة فى العصر العباسى
د على أبو زيد
دار المعـــــــارف سنـــــه ١٩٨٣ م

(٥٠) عصر الدول والأمارات، مصر والشأم
د شوقـــــى ضيف
دار المعـــــــــــارف الطبعة الثامنة

(٥١) العصر العباسى الثانى
د. شوقـــــى ضيف
دار المعـــــــارف الطبعـــــة السادسة

(٥٢) العمـــــــدة
ابن رشيق
دار الجيل الطبعـــــــة الرابعـــــة

(٥٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
د. شوقـــى ضيف
دار المعارف الطبعـــــة العاشـــرة

(٥٤) فى ميزان النقد الأدبى
د. طه مصطفى أبو كريشة
القاهـــــــــرة سنة ١٩٧٦م

(٥٥) فى النقد الأدبى
د. شوقـــــــى ضيف
دار المعـــــارف الطبعـــة الثامنة

(٥٦) الكامـــــل
المبـــــرد
طبعـــــــة بيـــــــروت

(٥٧) مجلة الرسالة

(٥٨) محمد توفيق البكرى
د ماهر حسن فهمى
سلسلـــــــة أعلام العـــــــرب

(٥٩) مع المتنبى
د طـــــــه حسين
دار المعارف الطبعة الثالثـــــة عشرة

(٦٠) المعارضة فى شعر شوقى
د ابراهيم عوضين
مطبعة السعادة طبعة أولى سنه ١٩٨٢ م

(٦١) من حديث الشعر والنشر
د. طـــــه حسين
دار المعارف الطبعـــــــة العاشـــرة

(٦٢) موسيقى الشعر
د. ابراهيـــــم أنيس
الطبعـــــــة الخامســـــــــة

(٦٣) النقد الأدبى
أحمد أمـــــــين
مكتبة النهضة الطبعة الرابعـــــــة

الفهارس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
تمهيد	١١
-ابن الرومى	١٣
-الصنوبرى	١٨
-المتنبى	٢٠
-أبو فراس الحمدانى	٢٩
-بين المتنبى وأبي فراس الحمدانى	٣٤
-الشريف الرضى	٣٦
-أبو العلاء المعرى	٤٣
- ابن سنان الخفاجى	٥٢
-ابن سناء الملك	٥٣
-كشاجم	٥٩
الفصل الأول (الدراسة الموضوعية)	٦٢
-المدح	٦٣
-حنان الأم	٧١
-حكمة الأم	٧٢
مرض الأم	٧٧

شكوى الزمان ٧٨
تمنى الفناء ٨٠
التأسى والعزاء ٨٦
الدعاء للأم ٩١
وقفة الشعراء على القبر ٩٣
أثر فقد الأم فى الأبناء ٩٥
صور متفرقة ١١٠
فى حياة الأم ١١٥
بين الأم والأب ١٣٠

الفصل الثانى (صور فنية)

مشاركة الكون للشاعر فى أحزانه ١٣٥
-التشخيص ١٣٩
-التصنع ١٤١
-المعارضة والتصنع ١٤٤
-الأوزان ١٥١
-مقدمة القصيدة ١٥٩
-خاتمة القصيدة ١٦٧
-الخيال ١٧٥
-العاطفة ١٩١
-الخاتمة ٢٠٣
-المراجع ٢٠٧

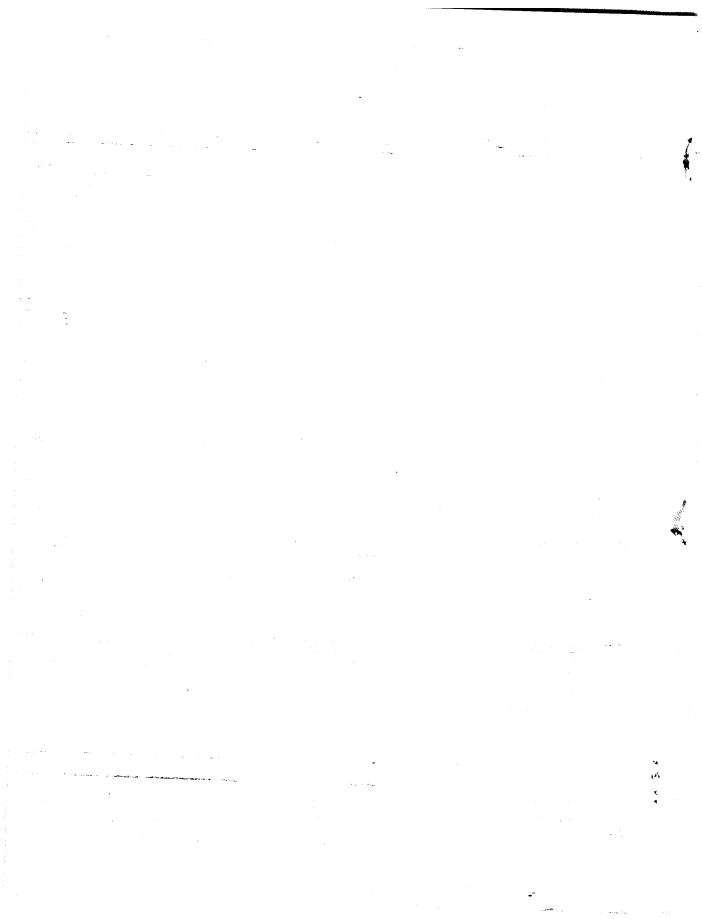

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٥٤٤ / ٢٠٠٠
ف ١٥ / ٤ / ٢٠٠٠م